كتاب الهلال

أم الرسول محمد

آمنة بنت وهب

تأليف

الدكتورة بنت الشاطئ

سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٢٦: شعبان ١٣٧٢ ــ مايو ١٩٥٣

No. 26 — May 1953

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ــ بوستة مصر العمومية ــ مصر
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ــ مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا ــ سوريا ولبنان ١٠٧٫٥ قرشا سوريا أو لبنانيا ــ الحجاز والعراق والأردن ١١٠ قروش صاغ ــ فى الامريكتين ٥ دولارات ــ فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلنا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

أمّ الرسول "محمد"

آمنة بنت وهب

تأليف

الدكتورة بنت الشاطئ

« انمـــا أنا ابن امـــراة من قريش تأكل القـــديد »

محمد رسول الله

مناجاة

أماه « آمنة » ...

ما تلوت من وحى السماء الى وحيدك الحبيب ، حديثه الجهير عن بشريته :

« انما أنا بشر مثلكم .. »

« سبحان ربى ، هل كنت الا بشرا رسولا ؟ »

الا ذكرت أن نبينا الكريم ، هو الانسان الذى حملته جنينا فى أحشائك ، ووضعته كما تضع كل أنثى من البشر ...

ولا تدبرت معنى قوله تعالى لابنك الخالد :

« وما أرسلنا من قبلك الا رجالا »

الا تنبهت الى أن لهؤلاء القادة الرسل أمهات ، وأن المرأة التى أنجبت البطل فى كل صورة ، وفى كل حين ، هى التى قامت عن « عيسى بن مريم » الذى قالوا انه اله ، وهى التى جاءت « بمحمد بن آمنة » رسول الله وخاتم النبيين

وهذا صوت وحيدك يملأ سمع الزمان على مر الآباد :

« انما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » فيحقر كبرياء الملوك ، ويسمو بأمومتك الى أفق لا يتطاول اليه

ترف الغنى ولا جاه المادة ، اذ يجعـــل منك أيتها الأنثى الوديعة المتواضعة ، والأم الطيبة الرءوم ، مبعث أنسه ، وروح انسانيته ، وآية محبته ، وموضع اجلاله واعتزازه

□

أماه « آمنة » ...

هو أبدا مجد الأمومة الذى خلد واهبات الحياة على الدهر، وصانعات التـــاريخ منذ الأزل والى الأبد ، وقد توجك وحيدك العزيز بتاج سماوى من هذا المجد الأزلى الأبدى ، حين هتف قائلا :

« الجنة تحت أقدام الأمهات »

وهو أبدا فخر الأنوثة التى حمت سر الوجود فى هـــذا الكون ، وحفظت حياة الانسانية فى هذه الدنيا ، اذ حملت أجنة البشرية وهنا على وهن ، فأى شـــعور غامر كان يملأ قلب ولدك ، حين أوصى الـــذى سأله عن أحق النـــاس باكرامه: أكرم أمك، ثم أكرم أمك ، ثم أكرم أمك، ثم ... أباك ؟ !

□

أماه « آمنة » ...

عن مجد الأمومة فيك ، وبطـــولة الأنوثة منك ، جئت أتحدث اليوم عن سيدة الأمهات التى جادت على الانسانية

بوليد وحيد ، حملت الملايين رايته فى أرجاء الأرض على مر الزمن ..

يتيم ، اعتز به الآباء الصيد والأصول الأمجاد ..

فقير ، حييت باسمه الدنى وفاضت الخيرات

وماذا كنت تبلغين من ذلك يا أماه ، لو أنك كنت ملكة متوجة ، أو فارسة مغـــوارة ، أو عالمة مبتكرة ، أو زعيمة قائدة ثم لم تلدى « محمدا : رسول الله » ؟

وأى عمل لك يا أماه أجل وأمجد ، من أنك كنت المنجبة لهذا الرجل الرجل ، ووالدة ذلك الرسول البطل ؟

□

وهأنذى أقف خاشعة أمام صورتك ، وقد حفت بها من أمومتك أضواء باهرة السـنا ، فيكاد جلالك يثنينى عن اطالة النظر اليك ، لولا أن أعود فأذكر أنك أم « محمد » الذى أصر على الاعتراف ببشريته ، فكان هذا الاعتـراف منه ، آية عظمتك وسر خلودك !

الكتاب الاول

سيدة الأمهات

١ ـ هذه السيرة ومصادرها

٢ ـ انوثة وأمومة

٣ ـ أمهات الأنبياء

هذه السيرة ومصادرها

بدأت هذه المحاولة فى درس سيرة السيدة «آمنة» وأنا أعى أتم الوعى، نقص المصادر والاخبار التى تحدث عن تلك الأم المنجبة ، لكننى لم أجزع لذاك ، اذ قدرت أنى انما أحدث عن والدة الرسول العظيم ، وأم البطل الذى هو فى حساب الحياة صفوة جنسه وخلاصة قومه ، ومن ثم مضيت ألتمس ملامحها ، فى صورة ابنها العظيم الذى أوته أحشاؤها ، وغذاه دمها ، واتصلت حياته بحياتها ، فلقد كان « محمد » هو الأثر الجليل الذى خلفته « آمنة » فليس بعجيب أن أراها فى ضوء هذا الأثر ، وأن يكون فهمى لها عن طريق تأمل عملها الفذ ، ممثلا فى ولدها العظيم

فهذا الحديث عن « آمنة بنت وهب » يتخذ من شخصية ابنها مصدرا هاما نستعين به على فهم شخصيتها ، وذلك بما تركت فيه من أثر واضح ، وما نقلت اليه من دماء قومها الكرام الذين تنقل فى أصلابهم جيلا بعد جيل ، وما حملته اليه من خصائص الأرومات الأولى التى اعتز بالانتساب اليها فى مثل قوله عليه الصلاة والسلام : ان الله اختاره من كنانة ، واختار كنانة من قريش ، واختار قريشا من العرب ، فهو خيار من خيار من خيار

أو قوله :

« أنا ابن العواتك من سليم »

□

ثم كان لى الى جانب هذا المصدر ، ما وعى التاريخ من أخبار آباء «آمنة» وأجدادها نساء ورجالا، وما حفظ لنا من طابع البيئة التى نشأت فيها ، وما عرفت الحياة من صورة الأنوثة والأمومة عند قومهـــا ، وما اطمأن اليه العلم من ترابط الأسباب وتناسق الأصول ومجرى الوراثة ، وفى هذا كله ما يجلو شخصية « آمنة » كما عرفتها دنيـاها ، وصنعتها بيئتها ووراثتها وظروفها ..

ذلك أن « آمنة » لم تكن سوى ثمرة للبيئة والوراثة ، قد جرت فى عروقها دماء الأصول الأولى ، ونمتها العوامل التى تركت طابعها الخاص فى كل ما أحاط بها من ظروف الزمان والمكان

أجل هى ثمرة طبيعية ، يستطيع الدارس المحقـــق أن يلتمس جذورها الأصيلة الممتدة فى أعماق منبتها وأعراق آلها ، وأن يستبين ملامحها ومعارفهـا فى الهـــواء الذى تنفسته والجو الذى عاشت فيه ، فاذا لديه تفسير مقبـول لأكثر ما حسبه بعض الناس خوارق مباغتـــة ومفاجآت عجيبة ، ناسين أنها أم الرســـول الكريم الذى أصر على الاعتراف ببشريته ، ولم يكن ليرضيه قط أن تبرأ أمه من هذه البشرية ، أو أن يضاف اليها ما يشذ بها عن سنة الله التى فطر الناس عليها ، أو أن تلون شخصيتها بما يجعل

ولدها كائنا عجيبا لم ينمه عرق ، ولا أمده أصل ، ولا غذته وراثة ، ولا نهضت به بيئة ..

على أني حين مضيت في تتبع الأصول البعيدة لآمنة ، ولمح المشخصات الواضحة لدنيـــاها ، ألفيت الى جانب ما يطمئن اليه العلم من مجرى الوراثة وفعل البيئة ، حشدا من آثار أخرى ليست من ذاك الصنف الأول ولا هي من واديه ... آثار يحرص كثير من الدارسين على تجاهلها ، اذ يرون فيها طابع الخيال وظل الوضع ، وفاتهم أن ينتبهوا الى دلالتها الاجتماعية التي لا تكذب ، والتي تمد الدارس بأضواء تكشف عما وراء التاريخ المـــادى من عالم نفسى ، وتكمل ما تتركه الأخبار من ثغرات فى فهم طبيعة المجتمع

تلك الآثار ، هي ما خلفه لنا قوم رأوا فى السيدة « آمنة » صورة الكمال المطلق لأم رسول ، فتحدثوا عنها بوحى من قلوبهم المعجبة ، ودافع من وجدانهم المؤمن ، ما كذبوا فى ذلك ولا مانوا ، ولا خدعوا ولا خانوا ..

ولغيرهم من أهل العلم والتحقيق أن يقولوا ما يأذن به الدرس المنهجى وراء سور الوجدان ، وبعيـــدا عن عالم القلوب ، ودون أفق الحب والايمان ، ولا بأس على هؤلاء ولا أولئك ، مما يقال هنا باملاء العقل ، أو يقال هنـــاك بلسان العاطفة والايمان ..

وكذلك يلتقى العلم والفن ، لا يعدوان على حقيقة ولا

يجوران على صواب ولا يتهمان بكذب ، فاذا قال الدارس عن « آمنة » ما قال ، مستنبئا الوراثة ، مستلهما البيئـــة ، متتبعا المؤثرات والآثار فى الأصول والفروع ، فهو محق صادق غير متهم ..

واذا قال فيها المحـــب الوامق والمؤمن الواثق ما قال بلسان الوجدان ، مفسرا بذلك ما يشعر به من عظمتها ، معبرا عن صورتها عنده ، وحقيقتها فى وزنه ، وجوهرها فى قلبه ، فهو صادق محـــق كذلك ، لا يسىء الى الواقع الخارجى فى شىء ، لأنه ليس من أهل هذا الواقع ، بل هو يحدث عن عالم قلبه ويعبر عن دنيا وجدانه ، ويترجم عن تفسيره لما بهره من عظمة، وما عشق من بطولة، وما أحس من الانفعال بجمال تراه بصيرته ، وجلال يهز مشــاعره ، وتلك دنياه لا يشركه فيها أحد ، ولا يزاحمه فى آفاقها أحد مهما تتسع وتمتد ، أو تبعد وتترام ...

□

واحسبنى بهذا القول ، قد مهدت لما أريد أن أقرره هنا، من عنايتى البالغة بكل ما قيل عن السيدة «آمنة»، لم أقتصر فى ذلك على الخبر التاريخى الثابت ، بل لم يكن اهتمامى به أكثر من اهتمامى بروايات أخرى قد يقرؤها الدارس بعين العلم فيجم، أو يسمعها المؤرخ باذن التحقيق فيبرم، وينسيه عالمه الواقعى ما وراءه من عوالم أخرى لأناس آخرين ، قد تمثلوا شخصية « أم الرسول » كما شاءت قلوبهم المحبة ، وكما رسمته لهم قواهم الفنية وطاقاتهم التعبيرية وتأملاتهم

الروحية ، فقدموا لنا بذلك كله صـــــورة « آمنة » فى نفوسهم ، وفسروا بذلك تاريخ الحياة كما فهموه وأدركوه

وما أحسب المؤرخ الذى وهب حياته كلها للدرس المحقق، يستطيع أن يجرد شخصية « آمنة » من كل هذا ، أو يزعم لنفسه أو للناس أنه قادر على أن يفهمها حق الفهم من غير أن يعرف كيف نظر أهل عصرها اليها ، وكيف تمثلها أبناء جيلها ، ثم كيف تنقلت صورتها فى الأدهار وسارت على الأجيال

فأنباء « آمنة » فى زوجيتها ، وحملها ، ووضـــعها ، وأمومتها ـ تلك الأنباء التى يحسبها بعض المحـدثين من أساطير الأولين ـ تصور للمؤرخ حياة هذه الأم فى نفوس جيلها ومخيلة الذين جاءوا بعدها ، وبهذا التصوير ، يجد تفسيرهم لعناصر حياتها ، ومنه ينتزع تحليلهـــم النفسى لشخصيتها ... وأنىّ لمؤرخ أن يســـتغنى عن ذلك فيما يعانى من تاريخ محقق ؟

وأرانى الآن قادرة على أن أبسط منهجى فى فهم سيرة « آمنة بنت وهب » بعد أن هيأت القارىء لفهم هذا المنهج:

لقد بدأت أول ما بدأت بدرس بيئتها وبيتها ، وتتبـــع الأصول البعيدة والملامح العامة للحياة العربية ، وحيـــاة المرأة حينذاك ، لأجد من ذلك ما يطمئن اليه الحق التاريخى فى حياة « آمنة بنت وهب »

وثانى الأمرين مما عمدت اليه فى هذه السيرة ، هـــو

ما يحلو لكثير من الدارسين ـ والمستشرقون منهم بخاصة ـ أن يسموه أساطير وأقاصيص ، ذلك أنى وجدت فى تلك الأساطير ، صورة أحداث التاريخ فى نفوس الذين عاشوا فى بيئة أم الرسول ، أو اتصلوا بها وتمثلوها . وكان هذا الفهم النفسى للأحداث ، معينا لى على تبين شخصية «آمنة» وتقديرها تقديرا يكشف عن ملامحها ويفسر آثارها . كما كان الذى رووه من أحلام « آمنة » ورؤاها ، أو تصوروه من أمانيها وآمالها ، صورا نفسية بشرية ، تمثلهــا المتمثلون لأمومتها وحيويتها ، وتلك مادة للتــاريخ الحق ، وان بدت فى صورة الخيال المجنــح ، والسرد القصصى الذى لا أراه يجور على الحقيقة بحال

انوثة وامومة

« تخـــيروا لنطفكم
فان العرق دساس »

حديث شريف

لا نرى أن نمضى فى الحديث عن احدى صانعات التاريخ، قبل أن نلم بمكانة الأم فى الجزيرة الى عهد « آمنة »

ذلك أنه قد شاع فينا أن المرأة فى الجاهلية قد كانت ــ فى خير حالاتها ــ متاعا للرجل ، وأنها عانت من صنوف الاستعباد والاستبداد ما أنقذها منه الاسلام • وعلى الرغم مما نقل الينا من أخبار تدل على ما كان للمرأة العربية فى الجاهلية من مكانة مرموقة ومآثر لم تضع مع الســـنين والقرون ، الا أن تلك الأخبـــار لم تذع فينا كما ذاعت الأخبار الأخرى التى تتحدث عن وأد البنات وانتقـــال الزوجات بالميراث من الآباء الى الأبناء ، وما الى ذلك من مظاهر الضعة والهوان

□

ولا نقول اننا سنحاول هنا أن ننصف المرأة العربية فى تلك العصور القديمة ، فالحق أن المؤرخين والرواة القدامى

لم يضنوا عليها بتسجيل ما تناقلته الأخبار من مآثرها ، وكل عملنا هنا ، أن نختار من ذاك الذى سجلوه ، بعض ما يصحح فكرتنا الشائعة عن الأنوثة والأمومة فىالجزيرة قبل الاسلام ، وأن نضع الى جانب الروايات المشهورة عما لحق بها من ظلم وعسف وهوان ، بعض ما تحدثوا به عن منزلتها الرفيعة ، وعزتها التى صينت بالدماء ، وافتديت بالمهج والأرواح ..

ويعنينا هنا بوجه خاص ، ما اختص بالأمومة أو كان منها بسبب ، لنلتمس منه ضوءا يكشف عما « لآمنة » من فضل فى انجاب خاتم الرسل والأنبياء ، وما كان لها من أثر فى تكوين ولدها الخالد الذى قال :

« تخيروا لنطفكم فان العرق دساس »

▭

يروع الذى يتصـــــل عن قرب بما كتب الأقدمون عن الجزيرة ، حرص العرب فى جاهليتهم البعيـــــدة على كرم النسب وطهارة الأرحام ونقاء الأصول . قال حكيمهـــم « أكثم بن صيفى » :

« لا يفتننكم جمـــال النساء عن صراحة النسب ، فان المناكح الكريمة مدرجة الشرف »

وقال شاعرهم :

وأول خبث المـــاء خبث ترابه
وأول خبث القوم خبث المناكح

ونقل « أبو عمرو بن العلاء » عن أحدهم :

« لا أتزوج امرأة حتى أنظر الى ولدى منها » • قيل له : « كيف ذاك ؟ » قال : « أنظر الى أبيها وأمهـــا فانها تجر بأحدهما »

وقال قائلهم لبنيه :

« قد أحسنت اليكم صغارا وكبارا وقبل أن تولدوا » • قالوا : « وكيف أحسنت الينا قبل أن نولد ؟ » • فأجاب: « اخترت لكم من الأمهات من لا تسبون بها »

ومثله ما أنشده « الرياشي » :

وأول احسانى اليكم تخـــيرى
لماجدة الأعـراق باد عفافهـــا

ولعل هذا الحرص منهم على كرم النسب ، يفسر لنــا كراهتهم للسباء

حدثوا أن « فاطمة بنت الخرشب » رمت بنفســـها من الهودج حين أسرت ، فماتت لساعتها وهى تردد المثل :

« المنية ولا الدنية »

وربما تزوج الرجل بسبيته وأنزلها من نفســه وقومه أكرم منزلة ، فلم ينف ذلك عنها مرارة الأسر • من ذلك ما رووه من أن رجلا من العرب اســـتبى امرأة فولدت له سبعة بنين ، ثم قالت له يوما : « أزرنى أهلى ليذهب عنى ذل السباء »

ففعل ، فأبت أن تغادرهم مع فرط تعلقها بزوجهـــا وثنائها عليه

وكذلك فعلت « سلمى الغفارية » زوج « عروة بن الورد العبسى » وكان شاعرا بطلا كريما ، أصاب « سلمى » يوم خرج « بنو النضير » يريدون « خيبر » ، بعد أن أجلاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن « المدينـــــة » • وكانت « سلمى » ذات جمال ، فأعتقها « عروة » وتزوجها وأقامت عنده بضع عشرة سنة ، ولدت له فيها أولادا ، وحلت من نفسه وقلبه أعز مكان ، اذ كان شديد الحب لها والحرص على ارضائها ، لكن ذلك لم ينسها مذلة السباء ، فقالت لهيوما: « ألا ترى ولدك يعيرون بأمهم ويســـمون بنى الاخيذة ؟ » قال : « فماذا ترين ؟ » قالت : « أرى أن تردنى الى قومى حتى يكونوا هم الذين يسلموننى اليك ! »

فاستجاب لها وهو لا يشك فى أنها ســـعيدة راضية ، صادقة الرغبة فى العيش معه

وخرج بها فحج ثم عرج على أهلها زائرا فتحايلوا عليـــه بالخمر حتى رضى أن يخيروها بين الاقامة فيهم والعودةمعه، فاختارت « سلمى » أهلها وهى تقول :

« يا عروة ، أما انى لا قول فيك ـ وان فارقتك ـ الحق: والله ما أعلم امرأة منالعرب ألقت سترها علىبعل خير منك وأغض طرفا وأقل فحشا وأجود يدا وأحمى لحقيقة • لكن ، ما مر علئ يوم منذ كنت عندك الا والموت فيه أحب الى من الحياة بين قومك ، لا نى لم أشأ أن أســـمع امرأة من قومك تقول : قالت أمة عروة كذا وكذا • والله لا أنظر الىغطفانية أبدا ، فارجع راشدا الى ولدك وأحسن اليهم »

فانصرف عنها حزينا حسيرا ، وهو يقول قصيدته التى مطلعها البيت المشهور :

سقونى الخمـــر ثم تكنفونى (١)
عداةُ الله من كـــــذب وزور

ولا أكاد أعرف ـ فيما قرأت ـ أمة قديمة بلغت كرامة الأمومة عندها ما بلغتـــه عند العـــرب ، وقد روى «المبرد» فى « الكامل : ج ١ ، ص ٢٥١ » أبياتا للسليك بن السلكة ، تعبر عما كان يرهقه ويضنيه من وجود اماء قد أذلهن الرق وأزرى بهن التبذل، مع قصور يده عن افتدائهن جميعا ، كرامة لأمه ـ وكانت جارية حبشية ـ فذلك قوله:

أشـــاب الرأسَ أنى كل يوم
أرى لى خالة بين الرحـــال
يشق علىّ أن يلقين ضـــيما
ويعجز عن تخلصـــهن مالى

☐

ولأبناء العقائل الكريمات حديث ـ أشبه بالقصص ـ عن حرصهم على عزة الأمومة وصيانتها بالمهج والأرواح ،ولعله يكفينا هنا أن ننقل مثلا واحدا ، ما رواه صاحب(الأغانى) من أن « عمرو بن هند : ملك الحيرة » قال يوما لجلسائه :

« هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمه من خدمة أمى؟»

فقالوا : « نعم ! أم عمرو بن كلثوم » قال : «.ولم ؟ » . قالوا : « لأن أباها مهلهل بن ربيعة ، وعمهـا كليب وائل أعز العرب ، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب ، وابنها

(١) الاغانى جـ ٣ ، ص ٣٨ ، طبعة دار الكتب

عمرو بن كلثوم وهو سيد قومه وليث كتيبتهم »

فأرسل « عمرو بن هند » الى « عمرو بن كلثـــوم » يستزيره ، ويسأله أن تزور أمه أمّه ، فأقبل « ابن كلثوم» من الجزيرة فى جماعة من بنى تغلب ، وأقبلت « ليلى » فى ظعن منهم

وأمر « عمرو بن هند » برواقه فضرب فيما بين الحـيرة والفرات ، وأرسل الى وجوه أهل مملكته فحضروا ، ودخل « ابن كلثوم » رواق الملك ، وأدخلت « ليلى » الى « هند » فى قبة من جانب الرواق ، وكان بين الاثنتين صلة نسب

قالوا : وقد كان عمرو بن هند أوصى أمه أن تنحى الخدم اذا دعا بالطرف، وتستخدم « ليلى » ، فلما فعل قالت«هند» لزائرتها بعد أن اطمأن بها المجلس :

ـ ناولينى يا ليلى ذلك الطبق

فقالت « ليلى » فى نفور :

ـ لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها ..

فأعادت « هند » عليها وألحت ، واذ ذاك صاحت ليلى :

« واذلاه يا لتغلب ! »

فسمعها ابنها فثار الدم فى وجهـــه وانتفض انتفاضة المحموم وقال :

« لا ذل لتغلب بعد اليوم ! »

ثم نظر حوله فاذا سيف معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره ، فوثب اليه وأطاح به رأس « ابن هند » ، ونادي في بنى تغلب فانتهبوا ما فى الرواق

والروايات تقول انه أنشد يومئذ معلقته المشهورة مرتجلا ، وفيها يصيح بالملك :

أبا هند فلا تعجل علينا
وأنظرنا ، نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا
ونصدرهن حمرا قد روينا
ألا لا يجهلنْ أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا
بأى مشيئة (عمرو بن هند)
تطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟
تهددنا ، وأوعدنا ، رويدا !
متى كنا لأمك مقتوينا ؟

وهو القائل أيضا :

على آثارنا بيض حسان
نحاذر أن تقسَّم أو تهونا
اذا لم نحمهن فلا بقينا
لشيء بعدهن ولا حيينا

ثم لم تكتف تغلب برأس الملك ثمنا لكرامة السيدة الأم ، بل قام « مرة بن كلثوم » ـ أخو عمرو ـ بعد ذلك وقتل ولد النعمان ، وأخاه ، ليطفيء جذوة من الغضب هاجها تعمد المهانة لأمه

وظلت «تغلب» تعظم قصيدة « عمرو » ويرويها صغارهم وكبارهم على تتابع الأجيال ، كما ظل مقتل «عمر بن هند» مفخرة لهم يباهون بها ما عاشوا ...

قال الفرزدق :

* قوم هم قتلوا ابن هند عنوة *

وقال صريم التغلبى :

لعمرك ما « عمرو بن هند » وقد دعا
لتخــــدم « ليلى » أمّــه بموفق

فقام «ابن كلثوم» الى السيف مصلتا
فأمســك من ندمانه بالمخنّــق

وجلله « عمــرو » على الرأس ضربة
بذى شطب صــافى الحديدة رونق

وقال « الأخطل التغلبى » لجرير يفخر « بعمرو ومرة ابنى كلثوم » :

أبنى كليب ان عمىّ اللــذا
قتــلا الملوك وفككا الأغلالا

الىمثل ذلك الحد ، بلغت غيرتهم على الأمومة ، وما نمنع أن تكون حادثة «ليلى أم عمرو» من أقاصيص السماروإضافات الرواة ، لكنها لن تفقد ــ فى أى وضع رضــيناه لها ــ دلالتها الاجتماعية على ما كان من عزة الأمومة فى الجاهلية

□

وقد شهد الرواة ــ الى جانب هــذا ــ للأم العربيــة بالطموح ، ولم يجحدوا ما كان لها من نصيب فى عظمـة بنيها،فهم يذكرون ــ فيما روى «القالى» بالأمالى ج٢/١١٨ طبعة بولاق ــ أن « أم الفضل بنت الحارث » كانت ترقص ولدها « عبد الله بن عباس » قائلة :

ثكلت نفسي وثكلت بكـــــــرى
ان لم يســــد فهرا وغير فهـــــر
بالحســـب العـــــد وبذل الوفر
حتى يوارى فى ضريح القبـــــــر

وأن « ضباعة بنت عامر » كانت ترقص ولدها « المغيرة ابن سلمة » بقولها :

نمى به الى الذرى هشــــــــام
قـــــــوم وآباء له كــــــرام
جحاجح ، خضارم ، عظـــــــام
من آل مخـــــزوم ، هم الأعــــلام
الهـــامة العليـــــاء والســـنام

ويعترفون بأن « حاتما الطائى » انما ورث الجـــود عن أمه ، ويروى صـــــاحب الأغانى (١٦/٩٣) أنها كانت لا تبقى على شيء ، فلما رأى اخوتها اتلافها أمسكوا عنهـا مالها ، حتى اذا ظنوا أنها وجدت ألم ذلك ، أعطوها طائفة من ابلها،فجاءتها امرأة من « هوازن » تسألها على ما تعودت أن تفعل كل سنة ، فقالت لها : دونك هذه الابل فخذيها ، فوالله لقد عضنى الجوع فلن أضيع سائلا :

لعمرك قدما عضنى الجـوع عضــــة
فآليت ألا أمنـــع الدهر جائعـــــا
فقولا لهذا اللائمى : اليـــــوم أعفنى
وان أنت لم تفعل ، فعض الأصابعـــا
فماذا عساكم أن تقــــولوا لأختكم
سوى عذلكم أو عذل من كان مانعا ؟

وماذا ترون اليـــوم الا طبيعـــة
فكيف بتركى يا ابن أمّ الطبائعا ! ؟

كذلك أنصفها الذين كتبوا عن حياة العرب فى الجزيرة، فشادوا بذكر « المنجبات » من عقائل العرب ، مثل :

ـ فاطمة بنت الخرشب : أنجبت الكملة لزياد العبسى ، وهم : ربيع الكامل ، وقيس الحفاظ ، وعمـــارة الوهاب ، وأنس الفوارس

قيل انها سئلت يوما : أى بنيك أفضل ؟

فبان عليها التردد وهى تقول فى حيرة :

« الربيع ، لا .. بل قيس » ثم هتفت : «ثكلتهم ان كنت أدرى أيهم أفضل ! هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها»

ـ وأم البنين، ابنة عامر بن عمرو ، زوج مالك بن جعفر . أنجبت له : ملاعب الأسنة، وطفيل الخيل، وربيع المقترين، ونزال المضيف ، ومعوذ الحكماء !

ـ وخبيئة بنت رياح الغنوية ، أنجبت ثلاثة كعشرة : خالدا ، ومالكا ، وربيعة

ـ وعاتكة بنت هلال السلمية ، أنجبت لعبد مناف بن قصى : هاشما ، وعبد شمس ، والمطلب

ـ وريحانة بنت معديكرب الزبيدى ـ أخت عمـــرو بن معديكرب ـ كان « الصمة بن عبد الله الجشمى » سباها ثم تزوجها فولدت له دريدا ، وعبد الله، وعبد يغوث ، وقيسا، وخالدا

واياها عنى أخوها « عمرو » بقوله :

أمن « ريحانة » الداعى السـميع
يؤرقنى وأصـحابى هجـوع
اذا لم تسـتطع شـيئا فدعه
وجـاوزه الى ما تسـتطيع

وليس ببعيد عن مظاهر مجـد الأمومة ، وما كان من اعزازهم لها ، أن عددا غير قليل من قبائل العرب وبطونها، نزع الى أمه وآثر الانتساب اليها ، كبنى «الخندف» ـ وهى ليلى بنت عمران القضاعية ، زوج الياس بن مضر ـ وعنها انشعب كثير من بطون العرب ، كهذيل ، وكنانة ، وأسد

وأم « الخندف » ، هى « ضرية بنت ربيعة بن نزار »التى ينسب اليها « حِمى ضُرية »

ومن القبائل التى انتسبت الى أمهاتهـا : بنو جديلة « بنت مدركة بن الياس » واليها تنتسب قبيلة عدوان

وكذلك بنو جندلة ، وبنو بجيلة ، وبنو العبـدية ، ورقاش ، ومزينة ، وعاملة ، وعفراء ، وباهلة ، وسلول

ومن الملوك من نسبوا الى الأم ، كعمرو بن هنـد ، والمناذرة بنى « ماء السماء » وهى ماوية بنت عوف بن جشم

وكثيرا ما سمعنا الشعراء يمدحون كبـار الرجال بأمهاتهم ، قال « حذيفة بن غانم » أخو بنى عدى بن كعب ابن لؤى ، يبكى « عبد المطلب بن هاشم » ويذكر فضـل قصى « على قريش » :

ولا تنس ما أسدى « ابن لبنى » فانه
قد اسدى يدا محقـوقة منك بالشكر

وأمـــك سر من خزاعة جـــوهر
اذا حصل الأنساب يوما ذوو الخبـــر
الى سبأ الأبطـــال تنمى وتنتمى
فأكرم بها منســوبة فى ذرا الزهر

وقال « بشر بن أبى حازم » يمدح « أوس بن حارثة بن لام » :

الى أوس بن حـــارثة بن لام
ليقضى حاجتى ، ولقــد قضـاها
فما وطىء الحصا مثل «ابن سعدى»
ولا لبس النعـــال ولا احتـــذاها

ولهذه الأبيات قصة بالغة الدلالة على اعتراف القوم بما للأم من أثر فى صنع أبنائها وتوجيههم • حدثوا أن قوما أغروا « بشر بن أبى حازم » بهجاء « أوس » ، فأخذ يتلقفه بلسانه حتى ضاق به فبعث من يشتريه من مولاه بالغـا ما بلغ ثمنه ، فلما جىء به خيره بين قطع لسانه وحبســه حتى يموت ، أو قطع يديه ورجليه وتخليه سبيله

ثم دخل « أوس » على أمه « ســعدى » فكرهت رأيه ، وأمرته أن يحسن عطاءه ففعل، فملأ « بشر » عراض الآفاق بمدائحه فى « ابن سعدى »

ولم ينسوا أن يذكروا للمرأة مشاركتها فى جليـــل الأحداث ، من ذلك ما رواه « ابن هشام فى الســيرة : ١٣٩/١ » عن دور المرأة فى حلف المطيبين الذى كان بين

بني عبد مناف ومن انضموا اليهم فى خلافهم مع بنى عبد الدار بعد وفاة « قصى بن كلاب » ، فلقد أخرجت نساء بني عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعها بنو عبد مناف لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، فغمس القوم أيديهم فيها ثم مسحوا بها الكعبة توكيدا على أنفسهم ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا

وقيل ان التى أخرجت لهم الجفنة ، هى « أم حكيم البيضاء : بنت عبد المطلب ، عمة رسول الله وتوأمة أبيه »

□

وأكثرنا يعرف للعرب حرصهم المفرط على الأنساب وولعهم بذكرها من قديم ، الى حد أن صار النسب عندهم علما يعنى به الحفاظ وتؤلف فيه الكتب ويشتهر به نفر من الذين وعوا أنساب العرب ، كجبير بن مطعم بن عدى وقد قيل انه « من أنسب قريش لقريش وللعرب قاطبة » ومثل « أبى بكر الصديق » الذى « كان أنسب العرب »

نعرف هذا ، لكنا حين يذكر النسب ، يتجه تفكيرنا ـ غالبا ـ الى الآباء والأجداد دون الأمهات والجدات ، مع أن نسابى العرب لم يغفلوا عن ذكرهن،وتكفى الىمامة يسيرة عاجلة بأحد كتب الأنساب ، لكى ندرك مدى حرص النسابين على ذكر الأمهات

وهذه العناية غير مستغربة من قوم كان لهم مثل ذاك الحرص على النسب، والاعتزاز بالاصالة ، والمباهاة بالخئولة ظل ذلك فيهم الى ما بعد الاسلام بقرون ، حتى لتسمع

« جرير بن عطية » يمدح « هشام بن عبد الملك بن مروان » قائلا :

فما الأم التى ولدت قريشـــا
بمقرفة النجـــــار ولا عقيم
وما قرم بأنجـــب من أبيكم
وما خال بأكرم من تميـــــم

قال ابن هشام (١) : « يعنى بالأم ، برة بنت مر ، أخت تميم بن مر ، أم النضر ــ والنضر هو قريش فى قــول ، ويقال بل فهر بن مالك هو قريش »

وما من قارىء يتتبع مساق (النسب الزكى) فى السيرة، الا عجب لعنايتهم البالغة بذكر الأمهات مهما ترتفـــع الأصول وتبعد

وما هكذا يكون الأمر مع ناس أهدروا المرأة فيهـــم وأنزلوها منزلة الهوان ، ولا هكذا يكون سلوك قوم ألفوا أن يئدوا بناتهن ، وأن يرث الابن الأكبر زوجة أبيه دون أن يكون لها من أمرها شىء

☐

على أنا لا نريد أن ننفى شيئا من هذا الذى قيل عما لحق بالمرأة العربية ــ فى بعض الحالات ــ من ظلم أو استبداد، لأننا ان فعلنا ، نكن كهؤلاء الذين أنكروا ما ظفـــرت به العقائل الكريمات من عزة ، وما وصلن اليه من مكانة

ثم هذا « القرآن الكريم » يقسم بالموءودة اذا سئلت ،

---

(١) السيرة ٩٦/١

بأى ذنب قتلت • وهذه كتب التاريخ العربى حافلة بماكان من ذاك ، لكنا نعرف أن ذلك لم يكن عاما بين العرب ، ثم نكره أن ننظر الى المرأة العربية من جانب واحد ، بل لعلنا اذا قسنا ما بلغنا من أخبار تكريمهن وتقديرهن والاعتراف بمآثرهن،الى ما روى عن مظاهر هوانهن والاستبداد بهن، لرجحت الأولى رجحانا ظاهرا ، وبخاصة اذا قدرنا ظروف البيئة العربية فى تلك الجاهلية القديمة ، قبل أن تسمع الدنيا عن (نهضة المرأة) و (حقوق النساء) بقرون ودهور

امهات الانبياء

بقى هناك أروع ما يقال عن الأنوثة والأمومة ، فى كتاب « آمنة أم النبى العربى »

بقى أن نرجع الى الأديان السماوية الكبرى لنرى (الأمهات) فى حيوات الأنبياء الأربعة :

اسماعيل ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، عليهم جميعا أزكى الصلاة والسلام

لقد يبدو من عجيب الاتفاق أنهم – عليهم السلام – قد عهد بهم فى طفولتهم الى الأمهات وحدهن دون مشاركة الآباء ، فلم تقم الأم بدورها الطبيعى فقط ، بل عوضت الى جانبه فقد الأب أو غيابه ، غير انا نرى الأمر طبيعيا لا غرابة فيه ولا مصادفة ولا اتفاق ، اذ الأمومة فى عاطفتها الجياشة وايثارها الرائع ، أقرب الى أن ترعى أصحاب الرسالات الدينية التى تقوم على الروحانية ، وما كانت السماء لتجحد هذه الصلة ، ولا كانت الأديان التى حملها أبناء صنعتهم أمهاتهم ، بالتى تؤخر مكان الأم أو تضعها فى غير موضعها العتيد : « سنة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله »

أم اسماعيل

« ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »

(قرآن كريم)

هذه (التوراة) تروى لنا قصة « هاجر أم اسماعيل » فى تفصيل مسهب ، وهذا (القرآن) يشير اليها فىمواضع شتى على أسلوبه المختار فى القصص • ويا لها من قصة الأمومة فى أروع مواقفها وأعنف مشاعرها ! لقد أراد الله أن يؤثر هذه الأم برعاية « اسماعيل » الوليد وانقاذه من الهلاك ، فتركه لها وحدها فى واد قفر غير ذى زرع ، كى تكون لهفتها على الصغير والألم الذى ذاقته حين رأته يكابد حرقة الظمأ ، ومسعاها المثير فى سبيل نجاته ، حديث التاريخ وعبرة الدهر ، وصورة تخلد فيها الأمومة وتتقدس آلامها الى حيث تغدو عبادة وصلاة !

ومن « هاجر » ؟

أمة ضعيفة لا حول لها ولا طول ، جاءت بها « السيدة سارة : زوجة إبرهيم » الى فلسطين ، بعد رحلتها المشهورة

الى مصر فى صحبة زوجها ، عندما خرج من بلاده مهاجرا بدينه كافرا بقومه وبما يعبدون من دون الله

وكانت السيدة « سارة » عاقرا ، وقد طال عليها الأمد وهى عاجزة عن أن تهب زوجها ولدا ، ثم ... بدا لها أن تهب زوجها تلك الجارية المصرية ، لعله يسكن الى احدى الراحتين !

وحملت « هاجر » فهاج ذلك فى سيدتها أقسى ما فى حواء من غيرة ، وخيل اليها أن أمتها صارت تنظر اليها نظرة فيها مباهاة ورثاء مذل ، فأقبلت على زوجها عاتبة شاكية تقول :

ـ أنا دفعت اليك جاريتى ، فلما حملت ترفعت على !

فرد عليها ملاطفا :

ـ هى جاريتك ، تصنعين بها ما تشائين !

لكن « سارة » لم تشأ أن تصنع شيئا قبل أن تبذل محاولتها الأخيرة فى احتمال الموقف ، حتى اذا وضعت « هاجر » مولودها ، نفد صبر السيدة وغلب احتمالها ، فأقسمت ألا يؤويها وجاريتها سقف

ثم ما زالت بزوجها حتى انطلق ذات يوم ميمما شطر الجنوب ، تتبعه « هاجر » وبين ذراعيها وليدها « اسماعيل »

وانتهى بهم المسير عند « مكة » وهى اذ ذاك مقفرة خلاء ، لا يكاد يلم بها سوى نفر من الرحل ، وقوم من العماليق كانوا يعيشون خارجها ويتنقلون من حين الى حين ، التماسا لماء أو انتجاعا لمرعى

وعند ربوة حمراء كانت قائمة هناك حيث أطلال البيت العتيق ، ترك ابراهيم « هاجر » وولدها ، وترك لها جراب تمر وسقاء فيه ماء ، وأمرها أن تتخذ لها عريشا ، ثم همّ بالرجوع من حيث جاء ، فارتاعت « هاجر » من وحشة البرية ، وتضرعت الى « ابراهيم » ألا يدعها وولدهما فى ذاك القفر المرهوب ، لكنه أشاح بوجهه عنها لا يلتفت ولا يجيب ، كأنما كان يخشى أن تخونه عاطفته أمام الأم الوالهة الحيرى ، أو تثور أبوته رحمة بابنه الوحيد ، الذى نبذه وأمه بالعراء

وأعادت « هاجر » سؤالها :

« أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه انس ولا شىء » وهو منصرف عنها منطلق فى سبيله لا يلوى على شىء ، حتى اذا كاد يتوارى خلف منعرج الوادى ، سمع صوتها الضارع يسأل فى وهن ولهفة :

ـ آلله أمرك بهذا ؟

أجاب دون أن يلتفت :

ـ أجل

فقالت « هاجر » فى استسلام خاشع :

ـ اذن فالله لا يضيعنا ...

وأطرقت صامتة ، فلم تر « ابراهيم » وقد رفع وجهه الى السماء حين غيبته ثنية الوادى ، وابتهل الى الله فى توسل:

« ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من

الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ـ ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن ، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء »

ثم استأنف مسيره عائدا الى زوجه « السيدة سارة »

□

وأقبلت « هاجر » على ولدها تستمد منه الأنس والعزاء، وكادت تنسى به محنة الرق ومأساة الهجر ، وقد شغلت بالنظر الى وجهه الحلو الحبيب ، فلم تشعر أول الأمر بوحدتها الرهيبة في البرية المقفرة ، ولم تدرك حق الادراك قسوة موقفها ذاك في الوادي الأجرد ، بين الصخور الكالحة والجبال الغبراء

حتى نفدت مئونتها الضئيلة ، وبدأ الظمأ يناوش الصغير العزيز ، فهبت مذعورة تبحث له عن قطرة ماء ..

وحين أعياها أن تجد هذه القطرة ، بدا لها أن تصعد الى عل ، فنظرت أي الجبال أدنى من الأرض ، فاذا « الصفا » قريب منها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر : هل ترى أحدا ؟ وتسمعت : هل تؤنس صوتا ؟ فلما لم تجد الا الوحشة والصمت ، أتت « المروة » مهرولة تسعى سعي المجهد ، وصعدت علها ترى أثرا من حياة ، ولا أثر ..

وظلت هكذا تسعى مهرولة بين « الصفا » و « المروة » سبع مرات حتى نال منها التعب والاعياء ، فتهاوت على

الرمال الى جانب ولدها تنتظر المصير الفاجع مستسلمة ، شبه يائسة ..

لكنها لم تلبث فى مكانها طويلا ، فلقد كان لهاث ولدها الظامىء يمزق قلبها ويفرى كبدها ، وكان مرآه والحياة تتسرب منه وتخبو رويدا رويدا ، أقسى من أن تحتمله أمومتها ، فجمعت كل ما بقى لها من قوة ، وزحفت بعيدا عن ولدها المحتضر ، ثم غطت وجهها بلفاعها وهى تقول :

« لا أنظر موت الولد »

وأمسك الكون أنفاسه ، ولم يبق من صوت سوى لهاث المحتضر وأنين أمه الملتاعة ، يتردد صداهما فى البلقع القفر ، مختلطا بعواء وحوش الفلاة ، وسعار السباع الجائعة المحومة على المكان ، كأنها ترقب الخفقة الأخيرة فى فريستها المنتظرة

ثم ... كانت النجاة

انبثق ماء « زمزم » فهرعت « هاجر » نحوها وهى تحس موجة طارئة من القوة والحيوية قد تدفقت فى كيانها ، وأقبلت ترتوى ، وتسقى ولدها ...

ودبت الحياة فى الوادى الأجرد ..

قالوا : « ومرت رفقة من«جرهم» مقبلة من طريق «كداء» تريد الشام ، فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طيرا فقالوا : ان هذا الطير لحائم على ماء ! لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ..

« وأرسلوا دليلهم ، فعاد يحدثهم عما رأى ، وتبعوه حتى أشرف بهم على الماء ، فاذا هناك هاجر وولدها . فقالوا لها:

ان شئت كنا معك فآنسناك ، والماء ماؤك

« فأذنت لهم فنزلوا معها ، وهم أول سكان « مكة »

▭

وخلدت « هاجر : الأمة المنبوذة » صورة مؤثرة مثيرة للأمومة فى حنوها وآلامها وهمومها ...

وعاش ولدها اسماعيل ـ ذاك الذى رعته وحدها حين تركه أبوه فى البلقع القفر ـ ليتلقى مع أبيه رسالة السماء:

« وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ، أن طهـــرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ـ واذ قال ابرهيم : رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليـــلا ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير ـ واذ يرفع ابرهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منـــا انك أنت السميع العليم ـ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم ـ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك أنت العـــزيز الحكيم »

أم موسى

« .. وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين»

(قرآن كريم)

لا يذكر لنا « القرآن الكريم » شيئا عن والد «موسى» ، وانما يخص بالذكر أمه ، ويكل اليها أمر حمايته وليدا ورضيعا ، حين استبد فرعون ببنى اسرائيل فأذلهم واستعبدهم وراح يسومهم سوء العذاب

وتقول الرواية (١) : انه رأى فى منامه رؤيا أفزعته « فدعا فرعون الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين ، فسألهم تأويل رؤياه فقالوا : يولد فى بنى اسرائيل غلام يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك ، ويخرجك وقومك من أرضك ، ويبدل دينك . وقد أظلك زمانه الذى يولد فيه » فجن غضبه وقلقه ، وأمر بقتل كل غلام يولد فى بنى

---

(١) راجع (قصص الانبيـاء) للامام الثعلبى . ص ١٧٣ و ١٧٤ ط السعيدية

اسرائيل ، وجند لذلك القوابل من النساء فى أنحاء المملكة

وولد «موسى» اذ ذاك خفية ، بعد أن ذبح فرعون فى طلبه سبعين ألف ولد على ما يقولون (١) — فارتجفت أمه رعبا وجزعا ، وأشفقت عليها القابلة فوعدتها أن تكتم الأمر . ويضيف بعض الرواة أنها — أى القابلة — لم تكد تنظر الى الوليد حتى اهتز قلبها رحمة له وتعلقا به ، وأبى عليها أن تسلمه الى الذبح

غير أنها ما كادت تنصرف من عند أم « موسى » حتى أبصرتها عيون فرعون التى بثها فى كل مكان ، فاندفعوا يقتحمون الدار وكادوا يظفرون بالوليد لولا أن لمحتهم أخته « مريم » فهمست جازعة :

— أماه ، هذا الحرس بالباب !

وفى ذهول المفاجأة ، لفت الأم ولدها فى خرقة وألقته فى جوف التنور ، دون أن تشعر بما تفعل ، فلم تكد تودعه هناك حتى دخل الحراس ، فلم يجدوا سوى الأم بادية السكينة والاطمئنان ، والى جانبها فتاتها تعنى بشؤون الدار فى جد وهدوء

وسألها الحراس فى فظاظة :

— ما أدخل عليك هذه القابلة ؟

أجابت من غير أن تزايلها سكينتها :

— هى مصافية لى ، دخلت علىّ زائرة

(١) العرائس للثعلبى : ١٧٥

فانصرفوا ، ودارت عينا الأم تبحثان عن ولدها ، فاذا صوته ينبعث من التنور ، فهرعت اليه وأخرجته

☐

وبدا جليا أن اخفاء الصغير غير مستطاع الا الى حين ، وأطرقت الأم مهمومة تفكر ، فأوحى الله اليها : « أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم ، فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له » .

واستجابت الأم لوحى السماء ، فاتخذت تابوتا وجعلت فيه قطنا ، ثم أرضعت وليدها وأرقدته فى التابوت وأحكمت عليه الغطاء ، وألقت به فى النيل ..

كيف كان شعورها اذ ذاك وهى تسلم فلذة كبدها بيدها الى النهر ؟

أغفل كثيرون ممن تعرضوا للقصة ، تصوير موقفها ذاك على ضفة النيل ، وقد تعلقت عيناها بالتابوت الذى يضم الصغير الحبيب ، اذ تتقاذفه الأمواج وتمضى به بعيدا ..

على أن منهم من أدرك الموقف المؤثر ، حين غاب التابوت عن بصرها ، وروعها الفراغ من حولها ، فتنبهت فجأة الى أنها ألقت ولدها بيديها فى اليم ، وكأن اشتغالها بالفرار به من عذاب الطاغية ، قد صرفها عن التفكير فى أى شىء عدا النجاة ، حتى أدركت بعد فوات الأوان ، أنها خلصت وليدها من سكين الظالم ، لتلقى به الى أفواه الحيتان !

قال « الثعلبى » فى (قصص الأنبياء : ص ١٧٤) :

« فلما ألقته فى النيل وتوارى عنها ، أتاها الشـيطان فوسوس اليها ، فقالت فى نفسها : ماذا صنعت بابنى ؟ لو ذبح لواريته وكفنته ، وكان أحب الى من أن ألقيه بيدى فى البحر وأدخله الى دواب البحر »

وانى لأتمثلها الآن وقد لبثت فى مكانها على الشاطىء لا تكاد تقوى على مغادرته، وقلبها يعدو فى أثر ذاك الذى مضى ... حتى افتقدتها ابنتها « مريم » فجاءت تلتمسها هناك، وقادتها فى رفق عائدة بها الى الدار ، حيث مضـت الأم المحزونة تطوف بأنحائها ، وتنادى الغائب العزيز ...

ثم أنزل الله سكينته عليها ، فأمسكت عبـزتها وكتمت لوعتها ، وانطوت على نفسها صابرة مستسلمة ، داعيـة خاشعة

▭

ومضت الأمواج « بموسى » حتى انتهت به الى روضة عند قصر « فرعون » كانت مسـتقى لجواريه ، فما لمحن التابوت حتى التقطنه وانطلقن به الى سيدتهن « آسية : امرأة فرعون » وفى حسابهن أن به كنزا من مال وجواهر

ثم فتح الصندوق ، فاذا الصغير الجميل يرفع الى «آسية» وجها مشرقا بابتسامة وضيئة !

وانثنت تملأ عينيها منه وقد أحست قلبها يتفتح له ، كأنما هو قطعة منها :

ولم يكن لها ولد ، فما أروعها هدية يقدمها القـدر الى أمومتها المحرومة ! !

فى هذا كانت تفكر ، حين أقبل الذباحون على جناحها، يطلبون الصبى

قالت آمرة :

ــ انصرفوا ، فان هذا لا يزيد فى بنى اسرائيل ...

ثم لما رأت ترددهم ، خففت من صرامتها وقالت :

ــ دعوا أمره لى ، فأنا آتى فرعون وأستوهبه اياه ، فان فعل كنتم قد أحسنتم ، وان أمركم بذبحه فلا ألومكم ..

وجاءت « فرعون » فهتفت به :

« قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا »

فكان جوابه :

ــ قرة عين لك ، أما أنا فلا حاجة لى فيه

ثم استدرك بعد لحظة :

ــ لا بل فليذبح ، فانى أخاف أن يكون هـــذا من بنى اسرائيل ، وأن يكون هو الذى هلاكنا وزوال ملكنا على يده

فلم تزل « آسية » تكلمه وترجوه ، حتى وهبه لهـــا ، وعادت به الى جناحها والدنيا لا تسعها من فرط غبطتها

وهنالك فى (حى المنبوذين) ، كانت « أم موسى »تضع يدها على قلبها الذى ما فتىء يخفق ملحا فى طلب النـــائى الغالى

قالت لأختها :

ـ « قصيه » وتتبعى أثره ، هل تسمعين له ذكرا ؟ أحى هو أم قد أهلكته دواب البحر ؟

فخرجت « مريم » تلتمس أثر أخيها ، وسارت بحـذاء النهر حتى حملتهـــا قدماها الى قريب من قصر فرعون ، لتسمع هناك أن ربة القصر تبنت غلاما رضـــيعا ، يأبى المراضع !

وحدثها قلبها أنه هو ، فظلت تحوم حول القصر فى حذر ولهفة وترقب ، حتى رأت جوارى « آسية » يخـــرجن فى التماس المراضع ، لعله يقبل ثدى احداهن .

هنالك لاذت « مريم » بكل ما فى طاقتها من شـــجاعة كى تدارى مشاعرها وتكتم لهفتها ، وتقدمت الى القصر فى حذر ، ثم قالت لبعض من هناك ، فى صوت حاولت ألا ينم عن شىء مما كان يخالجها :

ـ « هل أدلكم على أهـــل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ »

فراب القوم ما سمعوا ، وأحاطوا بها يسألونها :

ـ ما نراك الا تخفين أمرا !

فأجابت فى ثبات :

ـ بل أردت أن أنصح لكم ..

قالوا :

ـ لعلك تعرفين أهله، والا فما يدريك أنهم له ناصحون؟

فهزت رأسها قائلة :

ـ الأمر أبسط مما تظنون ! كل ما هناك أنى أعرف فيهم الرحمة وطيب الخلق ، وما أشك فى أنهم يرحبون بحضانة الصغير شفقة عليه ، وتقربا الى الملك ، والتماسا لبره !

وتبعوها الى حيث كانت « أم موسى » تجتر همومها فى وحدتها القاسية ، خالية الذهن من أسعد مفاجأة تخطر على قلب أم !

ولمحته ، فأمسكت صيحة فرح كادت تنطلق من أعماق قلبها المشوق فتنم عليها ، وأقبلت على الرضـــيع متجلدة متماسكة ، فضمته الى صدرها فى رفق ، وألقمته ثديها ..

فما كان أشد عجب القوم الذين عرفوا اباء « موسى » للمراضع جميعا ، اذ رأوه يلقف الثدى فى لهفة الظـــامىء يجد ريا !

ورضع حتى ارتوى ، وعاد رسل «آسية» اليها يصحبون « موسى » وأمه ، ويقصون عليها ما رأوا من أمرهما

قالت فى غبطة :

ـ هلا مكثت عندى يا ظئر لترضعى ابنى هذا الحبيب ؟!

فأجابت الأم :

ـ بل ان شئت يا سيدتى صحبته معى الى بيتى أرضعه وأرعاه ، فانى أخشى ان أنا هجرت بيتى وولدى ، ضاعوا .. ولست بتاركتهم أبدا ..

وقد يبدو عجيبا من « أم موسى » أن تقف هذا الموقف من « امرأة فرعون » فتأبى أن تقيم فى القصر ظئرا لولدها، لكنا لا نعجب لذاك ، فلقد أدركت الأم أنها سيدة الموقف

ما دام ولدها قد أبى أن يرضع الا من ثديها ، وانها لتعرف تعلق « آسية » بالصغير ، فلماذا لا تصر على أن تعود به الى دارها كى تروى به أشواق أمومتها فى اطمئنان ، بعيدا عن جو القصر وعيونه وأرصاده ؟

لماذا لا تنجو به من رقباء قد يريبهم حنوها الغامر على الصغير ؟

لو أنها أقامت بالقصر ، فهى بين أمرين أحلاهما مرة :

اما أن تكبت عاطفتها الظمأى وتخنق مشاعرها الطبيعية، كيلا يستريب القوم فى أمرها ، وذلك ما لا طاقة لأمومتها به بعد الذى كان من عذاب الحرمان

واما أن تترك نفسها على سجيتها ، فتدفع ولدها بيدها الى المذبحة !

ثم انها قد رأت من رحمة ربها بها وبولدها ، ما يغريها بأن تختار لنفسها وله المكان المطمئن فى دارها ، وفى ذلك يقول « الثعلبى »

« وتذكرت أم موسى ما كان الله وعدها ، فتعاسرت على امرأة فرعون ، وأيقنت أن الله سبحانه وتعالى منجز وعده »

ولم تجد « آسية » مفرا من اجابة الظئر الى طلبها حرصا على حياة الوليد ، فأذنت لها فرجعت به الى بيتها ..

فذلك قوله تعالى : « ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، انه كان من المفسدين ...

و « أوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه

فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين ـ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ـ وقالت امرأة فرعون : قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ـ وقالت لأخته : قصيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ـ وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ ـ فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ـ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين »

وقوله تعالى فى سورة طه :

« ولقد مننا عليك مرة أخرى ـ اذ أوحينا الى أمك ما يوحى ـ أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم، فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له ، وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ـ اذ تمشى أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ، فرجعناك الى أمك كى تقر عينها ولا تحزن »

هكذا نزل الوحى على « أم موسى » وعهدت اليها السماء بالمهمة الجليلة : مهمة انقاذ الوليد المدخر لاحدى الرسالات الكبرى ، من المذبحة التى لم ينج منها غلام لبنى اسرائيل اذ ذاك !

أم المسيح

« .. اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسـمه المسيح عيسى بن مريم وجيهـا فى الدنيا والآخرة ومن المقربين »

(قرآن كريم)

وعيسى عليه السلام ؟

ما يذكر « القرآن » له أبا ، وانما هو « عيسى بن مريم» كما دعاه كتاب الاسلام

ومن حق الأمهات أن يفخرن بنسبة نبى المسيحية الى أمه ، هذه الأم التى طهرها الله واصطفاها على نساء العالمين

وقصة أمومة « مريم » كما روتها كتب السماء ، بالغـة التأثير والعنف ، فلقد تعرضت ـ عليها السلام ـ لأقسى ما تتعرض له أنثى : نشأت فى بيت دين وتقى ، لأب عالم شيخ من كبار بنى اسرائيل ، فلما حملت بها أمها نذرت لله أن تهب ما فى بطنها لخدمة الهيكل: « اذ قالت امرأة عمران: رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى انك أنت السميع العليم ـ فلما وضعتها أنثى قالت انى وضـعتها أنثى ـ والله أعلم بما وضـعت ـ وليس الذكر كالأنثى ،

وانى سميتها مريم ، وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ـ فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا

ذلك أن أباها « عمران » مات وهي صغيرة ، فاختلف القوم فيمن يكفلها من آلها ، وألقوا على ذلك قرعة فكفلها « زكريا » زوج خالتها

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم : أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم اذ يختصمون »

وأمضت مريم صباها فى المحراب عابدة خادمة ، وفاء بنذر أمها ، حتى اذا اختارها الله من دون النساء جميعا ليودعها سره الأكبر ، بعث اليها فى خلوتها من بشرها « بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين »

فما كادت تسمع البشرى حتى أخذ الروع منها أعنف مأخذ ، ثم رفعت وجهها الى السماء وقالت :

« رب أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم آك بغيا ـ قال : كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا »

واستسلمت لأمر الله المقضى وقدره المحتوم ، حتى أحست الجنين يتقلب فى أحشائها ، ويا له من احساس رهيب تعانيه عذراء طاهرة الذيل نقية السمعة ! هنالك أشفقت من الفضيحة والعار ، فانتبذت بحملها مكانا

قصيا ، وأقامت فى واد للرعاة هجـــره رعاته بمواشيهم التماسا للكلأ ، فلما جاءها المخاض اتكأت الى جذع نخلة هناك ، ووضعت وليدها فى مذود للماشية ، وهى تقول :

« يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا »

□

ثم كان ما لابد أن يكون

أتت به قومها تحمله ، « قالوا : يا مريم لقد جئت شيئا فريا ، يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ ســوء وما كانت أمك بغيا »

ولم يشفع لها ما عرف القوم من عفتها وطهــرها ، ولا أنقذها من لعنتهم ما بدا من ولدها الصغير من آيات بينات، بل رموها بالاثم وقالوا عليها «بهتانا عظيما » ،فتلقت اللعنة صابرة ، وكابدت المحنة متجلدة لقضـــاء الله فيها وقدره ، راضية بما هو أقسى من الموت فى سبيل ولدها الموعـــود بالمجد الأعظم

ويصف « الانجيل » ما عانت « مريم » من ذلك وصـفا مؤثرا ، ثم يحدثنا عن فرارها بابنها الى مصر لكى تنجو به من الكيد والأذى ، حيث أقامت هنـــاك اثنى عشر عاما ، ترعاه وتكدح لتهيىء له أسباب العيش ووسائل التعلم

ولم يجحد الكتاب المسلمون ذلك الكفاح الصابر ، بل كتب « الثعلبى » فى (عرائسه : ٤٠٢) : « فأقامت مريم

بمصر اثنتى عشرة سنة ، تغزل الكتان ، وتلتقط السنبل فى أثر الحصادين ، وكانت تفعل ذلك والمهد فى منكبها ، والوعاء الذى فيه السنبل فى منكبها الآخر »

كما يتحدثون عن عنايتها بتعليمه ، ويصفون كيف أخذته صغيرا « وجاءت به الى الكتاب وأقعدته بين يدى المؤدب (١) حتى أذن لها فعادت به الى « أورشليم » ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة فى كتاب موسى »

وسكنا فى قرية « الناصرة » حيث عاشت له الى أن بلغ مبلغ الرجال ، وكانت هى التى لاذ بها عندما تلقى الوحى ، وكاشفها بهمومه الكبار ، وتزود منها بالتأييد والتشجيع

وقد سجل لها (انجيل برنابا) ذلك الموقف الخالد ، فذكر فى الفصل العاشر أنه لما بلغ « يسوع » ثلاثين سنة من العمر ، صعد الى جبل الزيتون مع أمه ليجنى زيتونا ، وهنالك تجلت له الرؤيا وعلم أنه نبى مرســـل الى بنى اسرائيل ، فكاشف مريم أمه بكل ذلك قائلا لها : انه يترتب عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد الله ، وانه ـ أى عيسى ـ لا يقدر فيما بعد أن يقيم معها ويؤدى ما عليه من دين لها بخدمتها

« فلما سمعت مريم هذا أجابت : يا بنى ، انى نبئت بكل ذلك قبل أن تولد ، فليتمجد اسم الله القدوس

« ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته

---

(١) الثعلبى : ٤٠٢

الدينية ، بعد أن صحبته مدى ثلاثين عاما ، هيأته خلالها للدور العظيم الذى ينتظره

انصرف عنها ، ولكنهما خلدا معا على الأيام ، آية من آيات الله ..

« وجعلنا ابن مريم وأمه آية »

« وجعلناها وابنها آية للعالمين »

☐

وتأتى « آمنة بنت وهب ، فى ختام هذا الموكب الرائع لأمهات الأنبياء ، لتكون أم الرسول اليتيم : خاتم الرسل، والمبعوث بآخر رسالات السماء !

الكتاب الثانى

بيئة ووراثة

١ ـ البيت العتيق

٢ ـ بنو زهرة

البيت العتيق

« ... واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت الا تشرك بى شيئا ، وطهر بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ـ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ـ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات .. »

(قرآن كريم)

سورة الحج ـ آية ٢٧ : ٢٨

لبيك اللهم لبيك !

هو الهتاف الخالد ، رددت صداه الآفاق المكية منذ ما لا يحصى من السنين ، فاذا الملايين تنثال الى « البيت العتيق » من كل فج ، ملبية أذان « الخليل » فى الناس بالحج ، ومستجيبة من بعده لدعاء النبى العربى اليتيم ، الذى وضعته « آمنة بنت وهب » فى دار « عبدالله بن عبد المطلب ابن هاشم » ، منذ قرابة ألف وأربعمائة عام !

يا أذن الزمان الواعية ...
ويا عين الدهر الباصرة ...
أى ألسنة للعابدين سمعت ؟
وأى وجوه هنالك رأيت ؟
وأى ألوان من البشر شهدت ؟
وأى ألوية خفقت بين يديك ؟

وأى هامات انثنت لديك ، فى هذه البقعة من الأرض ، وسط الوادى الأجرد الذى تحف به الصخور السود والجبال الشم ، منذ جعل « البيت » هنالك مثابة للناس وأمنا ، وحرما وملاذا ، يطمئن فيه الخائف ، ويأمن لديه المروع ، ويحقن عنده الدم المهدر ، وتحمى فى حماه حياة كانت اذ ذاك مستباحة في شرعة الصحراء وبضراوة البيداء ؟ !

« ان أول بيت وضع للناس ، للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين »

☐

يا ذاكرة الزمان الحافظة !
عرفت الدنيا بيوتا وبيوتا ..

ورأيت رسوما وطقوسا ، فى شرق الأرض ومغربها ، وقديمها والحديث ...

وشهدت حجاجا وزوارا ، وطائفين وعبادا ..

وهذا البيت العتيق بينها كان ـ ولا يزال ـ علما شامخا وصرحا ممردا ، ترامت أضواؤه وأصداؤه الى أبعد مما ترامي اليه تأثير بيت من تلك البيوتات ، ومزار من هاتيك المزارات !

ومن يدرى يا دهر ، كم من آلاف السنين قد أسقطت أوراقها أصابعك الباطشة من تقويم الزمن ، منذ كانت تلك البقعة الضيقة المحصورة من أرض الحجاز ، مأوى يسير الشأن ، ومحطا هين الأمر ، يريح فيه المسافرون من طلاب الرزق قوافلهم فى طريقهم بين الشمال والجنوب ذهابا وجيئة ، وربما التمسوا قريبا منه بعض ماء العيون ، قبل أن يستأنفوا مسيرهم الشاق فى قلب الفلاة ؟ !

من يدرى يا ذاكرة التاريخ ، كم من أجيال البشر مرت بك قبل أن يجد أولئك الضاربون فى الصحراء عبر الوادى القفر المرهوب والفيافى المهجورة الموحشة ، موئلا فى جوار « مكة » يتريثون عنده عابدين ، التماسا للحماية والعون ، وتزودا بشيء من الطمأنينة يعينهم على مسعاهم المضنى ومسراهم المخوف ، عبر الفيافى والقفار ؟

منذ كم من الدهور والأحقاب كانت تلك البقعة من الصحراء المترامية الأطراف ، مباءة عابدة يرى الناس بينها وبين السماء صلة مباشرة ، فهم ينثالون اليها حجاجا ضارعين ، ويلوذون بها داعين مبتهلين ، قد هانت لديهم الأرض الا موضعا ، وعز الأمان الا فى مكان ؟ !

كيف نمت معك يا زمن ، من محطة صغيرة للقوافل ، الى مركز تجارى هام ، تتلاقى فيه القوافل من شمال وجنوب،

وتتواصل حضارتا الشرق والغـــرب ، حين كانت الابل وحدها عدة السير وأداة الاتصال ؟

وكيف شاركت هذه البقعة في ذلك التواصل ، عندما ضجت الدنيا حولها بالحركة وزخرت بالحياة ، فجاءت من الشرق بما في فارس والهند والصين ، ومن الجنوب بما عند اليمن والأحباش ، ودفعت ذلك كله الى الغرب عن طريق البحرين الاحمر والابيض ؟ !

ليس غيرك يا زمن من يستطيع أن يصف لنا بالتفصيل، الاعتبارات الاجتماعية والاقتصـــادية التى جعلت المعنى الدينى لهذه البقعـــــة من قلب الفلاة ، يتضخم ويتركز ويتجسم ، حتى صار مثابة العرب ومطاف أحلامهم وتطلعهم الى الاســـتقرار الاجتماعى والعدالة المرجوة فى حياة آمن وأسعد وأهنأ، من تلك التى فرضتها عليهم البادية الضارية

ان تاريخ العرب المكتوب ، يقدم لنا من ذلك كله حديثا عجبا يملأ مجلدات وأسفارا ، أنزلها القوم منـــذ كانت ، منزلة عليا من الثقة فيها والاطمئنان اليها ، ومهما يكن رأى التحقيق العلمى فيها ، فنحن لا نزال نتخذ من مثل تلك الكتب والأسفار ، مراجعنا ومصادرنا فى معـــرفة ماضى الجزيرة قبل الاسلام ، اذ لا نملك ـــ الى اليوم ـــ مصـــادر تاريخية عن ذاك العهد الموغل فى القدم ، الا ما تركته لنا الرواية النقلية ، وعليها معتمدنا فى معرفة الأعراض العامة للتطورات التى يمكن أن تؤخذ من القضـــايا الاجتماعية الكبرى

أما التفاصيل الدقيقة فسوف تظل وديعة الدهر، الى أن

تصير هذه المنطقة موضع دراسة جيولوجية ، تمدنا بآثار عملية نقيم عليها الدرس التاريخى

منذ متى بدأ التاريخ الدينى لمكة ؟

يمضى به بعض كتاب السيرة ومؤرخى « مكة » الى عهد « شيث بن آدم » ، على أن تلك المرحلة الأولى من تاريخها البعيد غابت عنا فلا نكاد نعرف الا أنها كانت محطة متواضعة للقوافل ، وسوقا متوسطة للتبادل التجارى بين الشمال والجنوب من غرب الجزيرة ، كما نقرأ أنها كانت فى ذلك العهد السحيق موئلا للعبادة ، وهو أمر لم يكن منه بد ، تأمينا للراحلين والتجار

ثم تطورت العبادة فى ظروف مجهولة الى وثنية أنكرها « ابرهيم » فبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ مكة ، أجلى وأوضح ، وأوفى أخبارا ..

وقد تحدثت الكتب السماوية عن رسالة « ابرهيم » فى تفصيل وبيان ، فقصت علينا التوراة قصة مجىء ابراهيم الى « مكة » وتركه ابنه «اسماعيل» وأمه «هاجر» هناك ، حيث أوشكا على الهلاك ظمأ لولا أن انبثق ماء زمزم فأمسك عليهما الحياة ، وجذب القوافل فى أعقاب الرغاة

ووصف لنا القرآن الكريم موقف « ابرهيم » فى تلك البرية المقفرة ، يدعو الله أن يجعل أفئدة من الناس تهوى الى ذريته التى أسكنها بواد غير ذى زرع عند البيت المحرم،

كما حدثنا عن الرسالة الدينية الجديدة التي عهدت بها السماء الى ابراهيم وولده اسماعيل

كما يذكر لنا كتابنا الكريم ، مبلغ ما وصل اليه المركز الديني والاقتصادي لمكة :

« أو لم يروا آنا جعلنا لهم حرما آمنا تجبى اليه الثمرات ، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى »

من ذلك العهد السحيق ، يرتفع الدعاء الخالد :

« لبيك اللهم لبيك ! »

فتتجاوب به أودية مكة وبطاحها ، وتخشع له الجبال الصخرية السود التي تحيط بها ، وتعنو له هامات البدو الصلاب : أبناء البادية وأمراء الصحراء ...

ومن ثم يمضي مؤرخونا الثقات ورواتنا الأول، فيملأون المجلدات والأسفار بالحديث عن حرمة ذلك «البيت العتيق» كيف عظمت وجلت ، وعن « مكة » في عهدها الجديد كيف تسامت الى المنزلة الرفيعة التي بقيت لها على مر الحقب وتتابع الأجيال ..

حدثوا أن « جرهما » ـ وهم خئولة اسماعيل ـ تولوا أمر البيت وملأوا فجاج مكة ، حتى ضاقت على أصحابها الأولين من «بني اسماعيل» فتركوها دون أن ينازعوا «جرهما» في ولايتهم لقرابتهم ، واعظاما لحرمة «مكة» أن يكون بها بغي أو قتال ، فلما خلا الجو لجرهم بغوا وظلموا وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى لها . ويقول ابن اسحاق : « وكانت

مكة لا تقر فيها ظلما ولا بغيا ، ولا يبغى فيها أحد على أحد الا أخرجته ، ولا يريدها ملك يستحل حرمتهـــا الا هلك مكانه ، فيقال انها ما سميت ببكة الا لأنها كانت تبك ـ تكسر ـ أعناق الجبابرة اذا أحدثوا فيها شيئا »

وهكذا آخرج جبابرة « جرهم » من مكة أذلة صاغرين ، يرثيهم شاعرهم فيقول :

وقائلة والدمع سكب مبـــــادر
وقد شرقت بالدمع منها المحاجر :
كأن لم يكن بين «الحجون» الى «الصفا»
أنيس ، ولم يسمر « بمكة » سامر
فقلت لهـــــا والقلب منى كأنما
يلجلجه بين الجنـــــاحين طائر :
بلى نحـــن كنا أهلها فأزالنـــا
صروف الليالى والجدود العـــواثر
وكنا ولاة « البيت » من بعد «نابت»
نطوف بذاك «البيت» والخير ظاهر
فأخرجنا منهـــا المليـــك بقدرة
كذلك ـ يا للناس ! ـ تجرى المقادر
فسحّـــت دموع العين تبكى لبلدة
بها حرم أمن ، وفيها المشـــاعر

ورووا أن « تبعا » الحميرى مر بقرب «مكة» فى طريقه الى اليمن ، فأتاه نفر من هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر فقالوا له :

ـ أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟

قال :

ـ بلى !

قالوا :

ـ بيت بمكة يعبده أهله ، ويصلون عنده

وكان الهذليون انما أرادوا هلاك « تبع » بذلك،لما عرفوا من هلاك من أراد « البيت » من الملوك بسوء • ويقول « السهيلى » (١) : « وروى نقلة الأخبار أن « تبعا » لما عمد الى البيت يريد اخرابه ، رمى بداء تمخض منه رأسه قيحا وصديدا ••• وأنتن حتى لا يستطيع أحد أن يدنو منه قيد الرمح • وقيل : بل أرسلت عليه ريح كنعت منه ـ أى أيبست ـ يديه ورجليه ، وأصابتهم ظلمة شديدة ••• فدعا بالحزاة والأطباء فسألهم عن دائه ، فهالهم ما رأوا منه ولم يجد عندهم فرجا ، حتى جاءه حبران من اليهود فقالا: لعلك هممت بشيء فى أمر هذا البيت ؟

فقال : نعم أردت هدمه • وذكر لهما ما قال الهذليون فصاح الحبران :

« ما أراد القوم الا هلاكك وهلاك جندك • ما نعلم بيتا لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوكاليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعا »

---

(١) الروض الأنف : ١ ـ ص ٢٧ ط الجمالية

ثم نصحا له اذا هو أقدم على « البيت » أن يصنع عنده ما يصنع أهله : يطوف به ويعظمه ويكرمه ، ويحلق رأسه عنده ، ويذل له حتى يخرج ..

قالوا : فعرف نصحهما وصدق حديثهما ، فقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ، ثم مضى فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه ، وأقام بمكة ــ فيما يذكرون ــ ستة أيام ، ينحر بها للناس ، ويسقيهم العسل ، ثم كسا البيت أحسن الكساء ، وجعل له بابا ومفتاحا

فيقال انه برىء من دائه وصح من وجعه ، ويعلق « السهيلى » على ذلك قائلا :

« وأخلق بهذا الخبر أن يكون صحيحا ، فان الله سبحانه يقول : (ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم)

ثم يروى « لتبع » شعرا يقول فيه :

وكسونا البيت الذى حرم الله ملاء منضدا وبرودا

ونحرنا بالشعب ستة آلف فترى الناس نحوهن ورودا

ثم سرنا عنه نؤم سهيلا فرفعنا لواءنا معقودا

وسوف نسمع فى العام الذى وضعت فيه « آمنة » وحيدها ، قصة صاحب الفيل الذى رده الله عن بيته مريضا مدحورا ...

وتبلغ حرمة مكة عند القوم ، مبلغاً يصوره لنا ما رووه عن السيدة «عائشة» انها قالت : « ما زلنا نسمع أن«اسافا ونائلة » ــ وهما من أصنام العرب في الجاهلية ــ كانا رجلا وامرأة من جرهم ، أحدثا في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين ! »

وقد ذكر ابن اسحق فى (السيرة) وابن الكلبى فى (الأصنام) وياقوت في (معجمه) نسب هذين المخلوقين اللذين مسخا حجرين ، لاعتدائهما على حرمة الكعبة

كما يصور تلك الحرمة ، ما زعموه ــ فيما نقل ابن هشام في السيرة ــ من « ان أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى اسماعيل ،أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ــ حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح فى البلاد ــ الا حمل معه حجارة من حجارة البيت تعظيما للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة .. »

وكانت خدمة الكعبة نذرا غاليا تنذر له الأمهات والآباء فلذات أكبادهم من قديم الزمان ، من ذلك ما رووه أن امرأة من « جرهم » كانت لا تلد ، فنذرت لله ان هى ولدت رجلا أن تصدّق به على الكعبة عبدا لها يخدمها ويقوم عليها ، فولدت « الغوث بن مر بن آد بن طابخة » فكان يقوم على الكعبة فى الدهر الأول مع أخواله من جرهم :

انى جعلت ربِّ من بنيّه
ربيطة بمكة العليه
فباركنْ لى بها أليه
واجعله من صالح البريه

بهذا ومثله حدث النقلة وأكد الرواة ، وانه لشاهد على مدى ما وصلت اليه حرمة « البيت العتيق » فيهم ، ومكانة « مكة » عندهم ، تلك المكانة التى تنافس من أجلهـــــا المتنافسون وتقاتل المتقاتلون :

حاربت « خزاعة » جرهما حتى أخرجتهم من مكة ،وظلت ولاية البيت فى « خزاعة » يتوارثها بنوها كابرا عن كابر، حتى انتزعها منهم « قصى بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر » الذى هو قريش على أرجح الروايات

وكان « قصى » يدعى زيدا حتى مات أبوه «كلاب» وتركه فطيما ، فخرجت به أمه « فاطمة بنت سعد » الأزدية حين تزوجها « ربيعة بن حرام » واحتملهـــــا الى بلاده ، وبقى « زهـــــرة » أخو « قصى » فى مكة ، اذ كان قد بلغ مبلغ الرجال

وشب « قصى » غريبا وهو لا يعرف الا أنه ابن « ربيعة» زوج أمه ، حتى تسابّ هو ورجل من قضاعة ، فعيره قائلا:

ــ لست منا ، وانما أنت فينا ملصق

فدخل على أمه وقد وجم لذلك ، فقالت له :

ــ يا بنى ، صدق ·· انك لست منهم ، ولكن رهطك خير من رهطــه ، وآباءك أشرف من آبائه ، وأنت قرشى ، **واخوك زهرة** ، وبنو عمك بمكة ، وهم جيران ببيت الله الحرام

وعاد الى مكة رجلا، فانتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه، واذ ذاك رأى أنه « أولى بالكعبـــة وبأمر مكة ، من خزاعة

وبني بكر ، لأنه قرشي ، وقريش سليل اسماعيل وصريح ولده »

وشبت الحرب شعواء بين قريش ومن حالفهـــا ، وبين خزاعة وبني بكر، ثم تداعوا الى الصلح والتحكيم، وحكّموا « يعمر بن عوف » البكري فقضى بأن « قصيا أولى بالكعبة وأمر مكة ، من خزاعة »

ويقول الذين كتبوا تاريخ العرب ، ان مكة قد بدأت بقصي عهدا تضاءلت الى جانب مجده عهود خزاعة وجرهم ، وجدت فيها وظائف دينية أضيفت الى ما كان لها من قبل ، فكانت الى قصي « الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة، واللواء » وبها حاز شرف مكة كله ، وأبقـــاه في ولده من بعده ، ما يعرف المؤرخون أن أحدا نازعهم فيه قط

وكان أمر « قصي » في قومه ، مدى حياته وبعد موته ، كالدين المتبع لا يعمل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها الى مسجد الكعبة ، ففيها كانت قريش تقضي أمورها !

فلما أدركه الكبر ورق عظمه ، عز عليه ألا يدرك ولده البكر « عبد الدار » ما بلغه أخوه « عبد مناف » في زمان أبيه من شرف ، فقال الشيخ لعبد الدار :

« أما والله يا بني لألحقنك بالقـوم وان كانوا قد شرفوا عليك » ثم جعل اليه كل ما كان بيده من أمر قومه

قالوا : وهلك قصي ، ولبثت قريش على ما أراد لها زمنا، حتى قام بنو عبد مناف بن قصي : عبد شمس ، وهاشم ، والمطلب ، ونوفل ، فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بني

عمهم « عبد الدار » مما كان جدهم قصى قد جعله اليه من الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، اذ رأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم فيهم ، فتفرقت عند ذلك قريش وأجمعوا للحرب ، ثم تصالحوا على أن يقتسموا الميراث الجليل : لبنى عبد الدار الحماية واللواء والندوة ، ولبنى عبد مناف السقاية والرفادة

وظائف دينية ضخمة ، استحدث بعضها قصى ،وبعضها قديم عريق طالما اعتز به الذين تولوه ، اعتزازا وعاه الزمن وسجله الشعراء مباهين

قال « أوس بن تميم السعدى » مفاخرا بما كان قومه يتولون من اجازة الناس بالحج من عرفة :

لا يبرح الناس ما حجوا معرّفهم
حتى يقال : أجيزوا آل صفوانا
مجد بناه لنا قدما أوائلنا
وأورثوه طوال الدهر أخرانا

وقال « عمير بن قيس » أحد بنى مالك بن كنانة ، يفخر بالنسأة على العرب :

لقد علمت معد أن قومى
كرام الناس أن لهم كراما
فأى الناس فاتونا بوتر ؟
وأى الناس لم نعلك لجاما ؟
السنا الناسئين على معد
شهور الحل نجعلها حراما ؟

وذلك أنه كانت للعرب اشهر حرم لا يحل لهم فيها قتال أو غارة او طلب ثار ، الا أن ينسأها لهم أحد النسأة

ثم كانت للعرب فى مكة طقوس ومشاعر ومناسك منذ رفع « ابراهيم » القواعد من البيت و « أسماعيل » ، وعهد اليهما الله أن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود :

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم »

« والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها .. »

وقد ذكرنا آنفا ، ما كان من تقديس بعض بنى اسماعيل لحجارة الحرم التى حملوها معهم تبركا ، ثم خلف من بعدهم خلف نسوا ما كانوا عليه فعبدوا الأوثان وبقيت فيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها ، من تعظيم البيت والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عرفة والمزدلفة ، وهدى البدن ، والاهلال بالحج ، والتلبية

□

وطال المدى ومكة مهوى الأفئدة وقبلة العرب ، لا تكاد بقعة أخرى تجرؤ على منافستها او تطمع فى انتزاع مجدها ، حتى ترتد دون الغاية خاسئة حسرى ...

وذاكرة الزمن قد وعت من أمر تلك المنافسة فى خارج الجزيرة وداخلها ، ما يتناقله المؤرخون من حديث البيت

الذى أقامه « الغساسنة » بالحيرة ، والكنيسة التى بناها « ابرهة الأشرم » فى صنعاء ، ليصرف اليها حج العرب

وقد جلب اليها « الرخام المجزع ، والحجارة المنقوشة بالذهب ، من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وكان القصر من موضع هذه الكنيسة على فراسخ ، وفيه بقايا من آثار ملكها ، فاستعان بذلك على ما أراده فى هذه الكنيسة من بهجتها وبهائها ، ونصب فيها صلبانا من الذهب والفضة ، ومنابر من العاج والآبنس » (١)

ثم كتب الى مولاه نجاشى الحبشة : « انى قد بنيت لك ايها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى اصرف اليها حج العرب »

لكن « ابرهة » هلك دون غايته ، وبقى البيت العتيق بمكة كما كان ــ وكما سيظل الى الأبد ــ مثابة الخائفين ، وقبلة الحجاج العابدين ، دعوة ابراهيم الخليل وأذانه فى الناس :

« وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق »

وما تزال الدنيا ــ حتى الساعة ــ تقف خاشعة حائرة أمام ذلك الجلال الذى استأثرت به « مكة » دون سواها من مدائن كبيرة ، وحواضر أجمل منظرا وارغد عيشا واخصب أرضا . . .

---

(١) الروض الأنف : ١/٤٠

وما يزال كثير من المستشرقين ، فى عجب من أمر تلك العزة المنيعة ، تظفر بها بقعة جرداء فى واد غير ذى زرع ولا ظل ، يصفها زائر منهم فى القرن العشرين فيقول :

« فى قلب الصحراء ، فى واد قفر بين سلسلتين من الجبال الصخرية يحجبانها فلا يحس الحاج بلوغها حتى يقع نظره على شوارعها ...

« تقع بين تلال صخرية سود ، ذات أطوال متساوية تمتد عدة أميال ، حتى ليخال المرء أن لا نهاية لتلك التلال الجرداء ، ولا لتلك الصحراء المترامية التى يكاد ضوؤها يذهب بالأبصار ، ولا يأمل المرء ان يختلس برهة ينجو فيها من حرارتها اللافحة . فحصاها ، وصخورها الصم ، تبعث الى السماء بخارها فتبدو كأنها فحم يحترق ، ويصعد الى السماء دخانه ...

« واذا استثنينا بضع شجرات السنط المتناثرة ، بدت معالم الحياة كأنما جمدت فى تلك الفلاة ، فالوحشة تامة ، والسكون مسيطر ، ولا يصك أذنيك الا صفير الريح الصرصر العاتية ...

« وحتى السراب الذى يخدع المسافر فيجعله يأمل فى النخيل أو ظلال الحدائق الرطبة ، لا وجود له ، فلا نخيل هناك ، ولا حدائق توحى بالتفكير فيها وتمنيها ، فما من شىء ينبت فى بلدة الرسول المقدسة ، والليل هو الملاذ الوحيد من حرارة الشمس الكاوية »

بهذا وصف « بودلى » البلد الحرام الذى ظلت له حرمته لا تدرك ولا تنافس ، ولعل التفاتة سريعة الى تاريخه القديم ،

تجلو لنا سر تلك القداسة العريقة التى لم تنل منها السنون ولا عدت عليها عوادى الزمان ، فلمكة ـ منذ كانت ـ موقعها الاقتصادى الفذ ، ومكانتها الدينية الأولى

□

أترى حديثنا عن « مكة » و « البيت العتيق » قد طال ؟

أجل ، ولكن لا بأس علينا من ذلك ، ففى هذه البيئة المقدسة تفتحت عيون الفتاة التى عرفها التاريخ اما خالدة

فيها كان منبت « آمنة بنت وهب » والدة النبى العربى اليتيم الذى بعث فى مكة ، فأيد بمبعثه ذاك ما كان لها من حرمة عريقة ظل العرب يتوارثونها جيلا بعد جيل ، واتخذ من الكعبة التى تعبد فيها « الخليل » قبلته التى يولى المسلمون وجوههم قبلها حيثما كانوا وانى أقاموا ، ما عبد الله فى الارض !

أجل هى مكة ، بلد « آمنة » وولدها الوحيد ، ومهد رسالته ، ومثابة آبائه وأجداده ، وقبلة الذين آمنوا به امس واليوم وغدا والى الأبد ...

بنو زهرة

« ... لم يزل الله ينقلنى من الأصَلاب الطيبـة الى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان الا كنت فى خيرهما »

من حديث شريف

فى يوم لم يحدده التاريخ ، حوالى منتصف القرن السادس الميلادى رأت النور سليلة أسرة نابهة ، من القبيلة التى كانت ذات الشأن الاول فى تلك المنطقة المقدسة ، والتى استأثرت وحدها بوظائفها الدينية الضخمة ، وما يتبعهـا من امجاد وامتيازات ...

وتحمل الأسرة اسم « زهرة » (١) الولد البكر لكلاب بن

---

(١) فى (المعارف لابن قتيبة) أن زهرة اسم امرأة عرف بها بنو زهرة، قال « السهيلى » فى (الروض الأنف ١/٧٩) :

« وهذا منكر غير معروف ، وانما هو جدهم كما قال ابن اسحق »

يشير الى قول ابن اسحق : « فولد كلاب بن مرة رجلين : قصى بن كلاب، وزهرة بن كلاب »

وقد علق ناشرو السـيرة على هذا بقولهم فى الهامش : وزهرة امرأة نسب اليها ولدها دون الأب ، وهم أخوال الرسول

ثم لم يزيدوا ، ولم يشيروا الى مرجعهم فى هذا

ويلاحظ عليهم أنهم فى رقم ١ من هامش الصـفحة نفسها ، نقلوا عن الطبرى نصا صريحا فى أن زهرة رجل ، ثم لم يعلقوا على هـذا التناقض فى الروايات .

مرة بن كعب بن لؤى ، والشقيق الأكبر « لقصى » الذى ملك مكة ما عاش ، ثم تركها لقريش ميراثا مجيدا لم تنافسها فى شيء منه قبيلة أخرى ، حتى جاءها « محمد » ــ حفيد قصى وزهرة ــ بمجد الدهر وعز الأبد !

وأم زهرة وقصى ، « فاطمة بنت سعد بن سيل » أحد بنى الجدرة . سموا بذلك لأن جدهم « عامر بن عمرو الأزدى » بنى للكعبة جدارا حين دخلها السيل ذات مرة ، ففزعت قريش لذلك ، وخافت ان جاء سيل آخر ان يذهب شرفها ودينها . فلما بنى « عامر » الجدار ، سمى الجادر ، ولقب أولاده من بعده ببنى الجدرة

ولسعد بن سيل ، جد قصى وزهرة لأمهما ، يقول الشاعر :

ما نرى فى الناس شخصا واحدا
من علمناه ، كسعد بن سيل
فارسا اضبط فيه عسرة
واذا ما واقف القرن نزل
فارسا يستدرج الخيل كما اسـ
ـتدرج الحر القطامى الحجل

□

عرف « بنو زهرة » منذ كانوا ، بالود الخالص لبنى عبد مناف بن قصى دون اخوتهم من بنى عبد الدار . ولعلنا نذكر هنا ما نقلناه فى حديثنا عن « البيت العتيق » من أمر

قصى حين كبر ورق عظمه ، فعز عليه الا يبلغ ابنه البكر « عبد الدار » ما بلغه ابنه « عبد مناف » من شرف ورفعة ، فقال قصى لبكره :

« أما والله يابنى لألحقنك بالقوم وان كانوا قد شرفوا عليك : لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تفتحها أنت له ، ولا يعقد لقريش لواء لحربها الا أنت بيدك ، ولا يشرب أحد بمكة الا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما الا من طعامك ، ولا تقطع أمرا من أمورها الا فى دارك »

ثم كان ما كان من اذعان قريش لوصية شيخها حينا ، ثم اجماع بنى عبد مناف بن قصى : عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل ، على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار ، لشرفهم عليهم وفضلهم فى قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف ، يرون أنهم بمكانتهم فى قومهم ، أحق بالأمر من بنى عبد الدار ، وكانت طائفة مع بنى عبد الدار ، يرون أن لا ينزع منهم ما كان « قصى » جعل اليهم

وعقد كل فريق على أمرهم حلفا مؤكدا على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا ، فأخرجت نساء بنى عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم ، فسموا المطيبين . كما تعاهد بنو عبد الدار وحلفاؤهم عند الكعبة ، على مثل ذلك ، فسموا الأحلاف

وقد كان «بنو زهرة» مع **بنى عبد مناف** فى ذاك الحلف،

ولما عبثت كل قبيلة من المطيبين لأخرى من الأحـــلاف ، عبثت « زهرة » لبنى جمح ، وأقسمت لتفنينها (السيرة ١٣٩)

كما كان «بنو زهرة» مع بنى عبد مناف أخوة متجاورين لا ينفصلون ، وبيوتهم أبدا متجاورة ، فحين جزأت قريش الكعبة ، كان شق البـــاب **لبنى عبد مناف وزهرة** ، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم ومن انضم اليهم من قبائل ، وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وسهم ، وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى ، الخ

وكذلك كان « بنو زهرة » ممن سبقوا الى تلبية النداء حين تداعت قبائل من قريش الى « حلف الفضول » قبل البعثة بعشرين سنة ، وكان أكرم حلف وأشرفه . وذلك أن رجلا من زبيد قدم « مكة » ببضاعة فاشتراها منه العاصى ابن وائل ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عن الزبيدى حقه ، فاستعدى عليه الأحلاف : عبـــد الدار ، ومخزوما ، وجمح ، وسهما ، وعدى بن كعب ، فأبوا أن يعينوه على العاصى وانتهروه ، فلما رأى « الزبيدى » الشر ، أوفى على جبل أبى قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فصاح بأعلى صوته :

يا آل فهـــر لمظلوم بضاعتـــــه
ببطن مكة نائى الدار والنفـــر

ومحرم أشـعث لم يقض عمرته
يا للرجال ، وبين الحجر والحجر

ان الحرام لمن تمت كرامتـــه
ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام على أثر ذلك « الزبير بن عبـــد المطلب » وقال : ما لهذا مترك !

قالوا: فاجتمعت **هاشم وزهرة** ، وتيـم بن مرة فى دار عبد الله بن جدعان : أحد بنى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى (وعبد الله هو ابن عم السيدة عائشة) فصنع لهم طعاما ، وتعاقدوا على (ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا اقاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته)

وأنصفوا « الزبيدى » من العاصى

فيروى « ابن اسحاق » عمن سمع « طلحة بن عبد الله الزهرى » أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لقـــد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو ادعى به فى الاسلام لأجبت »

□

من هذه الأسرة القرشية الكريمة التى عرفت من قديم بصلة الود لبنى عبد مناف بن قصى ، والتى ذكر لها التاريخ مشـاركتها فى الأمجاد الكبرى لقريش ، واتصالهـا الوثيق بالأحداث الجليلة التى شهدتهـا « مكة » قبيل الاسلام ،

وتحالفها مع « هاشم » وبنيه فى الحلفين العظيمين : حلف المطيبين وحلف الفضول ... من هذه الأسرة كانت « آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة » التى توجت ذاك المجد العريق بالشرف الذى لا يدرك ولا ينال ...

أبوها « وهب » سيد بنى زهرة ، وجدها عبد مناف بن زهرة الذى يقرن اسمه بابن عمه عبد مناف بن قصى ، فيقال : « المنافان » تعظيما وتكريما (١)

وجدتها لأبيها : « عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال السلمية » احدى اللواتى اعتز بهن الرسول فقال :

« أنا ابن العواتك من سليم »

ولم يكن نسب « آمنة » من جهة امها ، دون ذلك عراقة وأصالة ، فهى ابنة « برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى »

وجدتها لأمها : « أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى »

ووالدة أم حبيب : « برة بنت عوف بن عبيد بن عويج ابن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر »

سلالة عريقة أصيلة ، أنبتت « آمنة » لتضطلع بعبئها الجليل فى امومتها التاريخية

ووراثات مجيدة ، أهدتها الى ولدها فجمعت له عز المنافين : « عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وعبد مناف بن

---

(١) الروض الأنف : ١/١٠٤

قصى بن كلاب » وجعلته — صلى الله عليه وسلم — يعتز بنسبه فيقول من حديث رواه « ابن عباس » :

« ... لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان الا كنت فى خيرهما »

وعن « أنس » انه قال :

« قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لقد جاءكم رسول من انفسكم) — بفتح الفاء — وقال : انا انفسكم نسبا وصهرا وحسبا »

نسب تحسب العلا بحلاه قلدته نجومها الجوزاء
حبذا عقد سؤدد وفخار انت فيه اليتيمة العصماء

الكتاب الثالث :

زهرة قريش

١ ـ فتاة زهرة

٢ ـ فتى هاشم

٣ ـ العرس

٤ ـ البشرى

فتاة زهرة

« ... وكانت يومئذ افضل فتاة فى قريش نسبا وموضعا »

ابن اسحاق

تفتح صباها فى أعز بيئة وأطيب منبت ، فاجتمع لها من اصالة النسب ورفعة الحسب ، ما تزهو به فى ذاك المجتمع الأرستقراطى المعتز بكرم الأصول ومجد الأعراق ...

كانت زهرة قريش اليانعة ، وبنت سيد بنى زهرة نسبا وشرفا ، وقد ظلت فى خدرها محجبة عن العيون مصونةعن الابتذال ، حتى ما يكاد الرواة يتبينون ملامحها أو يجرؤون على رسم صورتها ، بل لا يكاد المؤرخون يعرفون عنها الا أنها « كانت يومئذ أفضل فتاة فى قريش نسبا وموضعا » (١)

على أن شذاها العطر كان ينبعث من دور بنى زهرة ، فينتشر فى ارجاء مكة ويثير أكرم الآمال فى نفوس شبانها الذين زهدوا فى كثيرات سواها ، ابتذلتهن العيون والألسن، « وعرف لبعضهن اثر فعال فى المضاربات والمقامرات التى كانت ذائعة بين المكيين اذ ذاك ، على حين اكتفت أخريات

(١) السيرة ١/١٦٥

ــ كما يقول بودلي ــ بمعاونة التجار والمقامرين فى تبديد ما ربحوا ، فسيطرت الطبيعة الحاسبة على مشاعرهن وحبهن ، فكانت عواطفهن ترتفع وتنخفض مع السوق »

▭

وقد عرفت « آمنة » فى طفولتها وحداثتها ، ابن العم « عبد الله بن عبد المطلب » بين من عرفت من أترابها فى الأسر القرشية ، اذ كان البيت الهاشمى اقرب هذه الأسر جميعا الى بيت آل زهرة : جمعتهما أواصر ود قديم لم تنفصم عراه ــ على ما راينا ــ منذ عهد الشقيقين « قصى وزهرة ولدى كلاب بن مرة »

أجل عرفت « آمنة » « عبد الله » قبل أن ينضج صباها ويحتويها خدرها ، وتلاقت واياه فى الطفولة البريئة على روابى مكة وبين ربوعها ، وفى ساحة الحرم الأمين ، كما جمعتهما مجامع الأسرة حيث كان عبد المطلب سيد بنى هاشم ، ووهب سيد بنى زهرة يتزاوران عن ود ، ويجتمعان للتشاور كلما أهم « قريشا » أمر . . .

▭

ثم حجبت « آمنة » حين لاحت بواكير نضجها ، فى الوقت الذى كانت فيه خطوات « عبد الله » تسرع به الى الشباب

ورنت أنظار الفتيان من بيوتات مكة الى زهرة قريش ، وتسابقوا الى باب بيتها يلتمسون يدها ، ويزفون اليها ما لهم من مآثر وأمجاد

فتى هاشم

« ودخل عبد المطلب ببنيه العشرة على هبل فى جوف الكعبة ، فقال لصاحب القداح :

ــ اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم

« وكان عبد الله أحب ولد عبد المطلب اليه ، فكان يرى ان السهم اذا اخطأه فقد أشوى .. »

ابن اسحاق

لم يكن «عبد الله» بين الذين تقدموا لخطبة «زهرة قريش» مع انه الجدير بأن يحظى بيدها دونهم جميعا ، فما كان فيهم من يدانيه شرفا ورفعة ووسامة

فهو ابن « عبد المطلب بن هاشم » أمير مكة « الذى شرف فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم »

وأمه « فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية » من صميم البيت القرشى ، وقد أنجبت لعبد المطلب ولديه « الزبير ، وأبا طالب » فكان من نسلها الامام على ، وجعفر الطيار

ثم ولدت « لعبد المطلب » فتاه عبد الله ، أبا محمد الرسول وجدة « عبد الله » لأبيه ، « سلمى بنت عمرو النجارية » التى كانت لا تنكح الرجال لشرفها فى قومها ، حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها اذا كرهت رجلا فارقته »

□

ولعل « آل وهب » لم يعجبوا لموقف « عبد الله » ، اذ لم يتقدم لخطبة « آمنة » ، فما كانوا ليجهلوا أن أباه قد نذر نذرا غليظا ، لينحرن أحد بنيه لله عند الكعبة

وأى القرشيين لم يعلم بقصة ذلك النذر المحتوم ، الذى يقرر مصير أبناء شيخ بنى هاشم ، وفيهم عبد الله ؟

ذلك أن «عبد المطلب» حين انتهت اليه امارة «مكة» وولى السقاية فيما ولى من وظائف الحرم ، أخذ يطيل التفكير فيما يلقاه الحجيج من مشقة بسبب قلة الماء

وذكر بئر « زمزم » التى انقذت جده « اسماعيل » من الهلاك ، وجذبت الى « مكة » القوافل على آثار الرعاة . . وذكر ما وعته اذناه مما نقل الآباء عن الأجداد ، ورددته الرواة فى مسامر « مكة » ومجامعها عن حديث « جرهم » ودفنها « زمزم » حين أرغمت على الخروج من مكة ، فود لو وفقه الله الى العثور على موضع البئر المطمورة ، اذن لكان له شأن أى شأن !

وقويت رغبته هذه مع طول التفكير ، حتى صارت مشغلة نهاره وليله ، وخايلته الرؤى فى منامه تبشره بتحقيق أمله الغالى !

روى « ابن اسحاق » عمن سمع على بن ابى طالب ، يحدث حديث جده وزمزم فيقول :

قال عبد المطلب : « انى لنائم فى الحجر اذ أتانى آت فقال : « ... احفر زمزم ، انك ان حفرتها لم تندم ، وهى تراث من أبيك الأعظم ، لا تنزف أبدا ولا تذم ، تسقى الحجيج الأعظم ، مثل نعام جافل لم يقسم »

فغدا « عبد المطلب » بمعوله ومعه ابنه الحارث ،ليس له يومئذ ولد غيره ، حتى اذا هم بالحفر بين وثنى « أساف ونائلة » قامت اليه قريش تصده قائلة : والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما

فالتفت « عبد المطلب » الى ابنه « الحارث » وقال :

ـ ذد عنى حتى أحفر ، فوالله لأمضين لما امرت به

وقاومت قريش ، وعيرته بقلة الولد ، على حين اصر هو على ان يمضى فى الحفر ، فلما بدت له الحجارة التى طويت تحتها البئر،رفع صوته مكبرا، فعرفت قريش انه قد أدرك حاجته ، فقاموا اليه فقالوا :

ـ يا عبد المطلب ، انها بئر أبينا « اسماعيل » ، وان لنا فيها حقا ، فأشركنا معك فيها ..

قال :

ـ ما انا بفاعل ، ان هذا الأمر قد خصصت به دونكم ، واعطيته من بينكم

فقالوا :

ـ فأنصفنا فانا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ...

قال : لا ، ولكن هلموا الى امر نصف بينى وبينكم ، نضرب

عليها بالقداح : اجعل للكعبة قدحين ، ولى مثلهما ، ولكم كذلك ، فمن خرج له قدحاه على شىء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شىء له

قالوا : « انصفت »

وضربت القداح ، فخرج قدحا الكعبة على الذهب ، وقدحا عبد المطلب على الأسياف والدروع ، وتخلف قدحا قريش !

ومن ثم اقام عبد المطلب سقاية زمزم للحجاج ، لاينازعه فى مائها أحد من قومه قريش

تلك هى قصة زمزم وعبد المطلب ، كما رواها كتاب السيرة ومؤرخو ذلك العهد من المسلمين ، أتينا بها هنا تمهيدا لحديث « النذر » الذى يتصل « بعبد الله » أقوى اتصال

ذلك أن اباه عبد المطلب — حين اشتغل بحفر البئر — لم يكن له من الولد كما ذكرنا سوى ابنه الحارث ، فلما لقى من قريش ما لقى ، وسمع تعييرها اياه بقلة الولد ، نذر يومئذ ، لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا حتى يمنعوه ، لينحرن أحدهم عند الكعبة

وتوافى بنوه عشرة ، وكان « عبد الله » اصغرهم جميعا ، فتلبث عبد المطلب حتى اذا عرف أنهم بحيث يمنعونه ، دعاهم الى الوفاء لله بنذره فلبوا طائعين ...

◻

أصبحت « قريش » ذات يوم من شهر جمادى الاولى

قبل مبعث النبى بنحو احدى وأربعين سنة ، ولا حديث لها الا « عبد المطلب » الذى خرج ببنيه العشرة الى الكعبة ، وقد حمل كل منهم ، قدحا عليه اسمه ، واستسلموا للمصير المحتوم راضين

وخفقت قلوب نساء قريش جميعا عطفا وحنانا فى انتظار اللحظة الفاصلة ، ولعل عددا منهن قد ذهب فيمن ذهب الى الكعبة ، ليسمع كلمة السماء فى الذبيح المختار ، على حين بقيت « آمنة » مع من بقين ، لا تستطيع أن تبرح دار أبيها ، وان أقامت تترقب الأنباء فى لهفة ، وهى لا تدرى أى بنى العم يختاره رب الكعبة وفاء بنذر شيخ الهاشميين

ومضت الساعات ثقيلة بطيئة ، وما من عائد يخبر عما كان هناك فى الحرم

◻

ثم انتشر الخبر فجأة فى سرعة البرق فملأ ارجاء مكة ، متنقلا بين أندية قريش ودورها حتى بلغ مسمع « ابنة وهب » :

لقد اختارت الكعبة « عبد الله » ذبيحا

ووجمت « آمنة » للنبأ كما وجمت له كل قرشية يعز عليها أن ينحر زين شباب مكة واعز ابناء « عبد المطلب » على ابيه وعلى قريش جميعا !

وتتابعت الأخبار بعد ذلك سراعا ، تصف كيف دخل شيخ هاشم ببنيه على « هبل » فى جوف الكعبة ، واخبر

صاحب القداح هناك بنذره ، ثم قاوم عاطفة الأبوة بكل ما يملك من شجاعة وارادة وايمان ، ليقول لصاحب القداح :

« اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه » !

فأعطاه كل واحد من الأبناء العشرة قدحه الذى فيه اسمه ، وأبوهم ينقل عينيه بينهم جميعا ، حتى استقرت نظراته آخر الأمر على أصغرهم « عبد الله » ففاض قلبه رقة وحبا واشفاقا ، ورأى « أن السهم اذا أخطأ هذا الفتى الحبيب ، فقد أشوى » !

وحانت اللحظة الحاسمة :

ضرب صاحب القداح ، و « عبد المطلب » قائم عند هبل يدعو الله ، فخرج القدح على عبد الله !

هنالك جمع الشيخ كيانه المهتز ، واخذ فتاه الغالى بيد ، وأمسك الشفرة باليد الأخرى ، ثم اقبل به على « اساف ونائلة » ليذبحه !

بهذا كله ، طارت الأنباء فى أرجاء «مكة» حتى بلغت حى بنى زهرة ، ثم أمسك الراوى ، وخيم الوجوم الحزين على الأفق ، وجمدت الأعين فما تجود بدمعة !

وأقفرت دار سيد بنى زهرة من رجالها ، كما أقفرت اندية قريش جميعا ودورها ... ترى هل ذهبوا ليحضروا مذبح عبد الله ، ويكونوا الى جانب أبيه وهو يعانى التجربة الرهيبة ؟

هكذا ظنت « آمنة » وتمنت فى تلك اللحظة ، لو استطاعت أن تنطلق فى اثر قومها وهم يسعون الى الحرم مهرولين ، ولكن أنى لها ذاك وهى المحجبة المصون ؟ !

وهبها استطاعت ان تفعل ، أفقادرة هى على ان تصنع شيئا من أجل انقاذ ابن العم ؟ لقد قضى الأمر وفات أوان الصلاة والدعاء ...

□

وولى النهار ...

واقبل ليل كثيف السواد متراكب الظلمات ، ورجال قريش لم يؤوبوا بعد الى دورهم

ما الذى امسكهم هناك وعاقهم عن الأوبة ؟ لم تكن « آمنة » تدرى ، حتى عاد من يخبرها أن الرجال قد ارتحلوا عن « مكة » فما فيها منهم الليلة سامر !

وانبثق شعاع نحيل من الأمل وسط الظلمات المتراكبة ، حين مضى الراوى فى حديثه يقول :

« لم يكد الأب يهم بذبح فتاه ، حتى قامت اليه قريش من انديتها فقالوا :

ـ ماذا تريد يا عبد المطلب ؟

قال : « أفى بنذرى »

فقالت له قريش وبنوه :

ـ والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟

ووثب المغيرة بن عبد الله المخزومى ـ وهو من آل فاطمة بنت عمرو المخزومية : ام عبد الله والزبير وابى طالب ـ فامسك بيد عبد المطلب وهو يصيح :

ـ والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ، فان كان فداؤه بأموالنا فديناه ...

واضاف شيوخ قريش :

ـ فلتنطلق بولدك الى عرافة بخيبر ، لها تابع ، فلتسألها : ان أمرتك بذبحه ذبحته ، وان أمرتك فيه بأمر لك وله فيه فرج ، قبلته ...

فنزل « عبد المطلب » على رأى القوم ، وانطلقوا فى طريق « خيبر » يلتمسون الكلمة الفاصلة من عرافة الحجاز

مضوا وخلفوا من ورائهم قلوبا واجفة وعيونا مسهدة ، وجنوبا قد نبت بها المضاجع ، وألسنة ضارعة فى جوف الليل ، لا تفتأ تدعو الله للمستشهد الصابر : عبد الله ، فتى هاشم

وأعقبت رحيلهم أيام قاربت العشرين عدا ، وانيات الخطو بطيئات المسرى ، كأنما كانت تجر أثقالا من الصم الصلاب

وبقيت أندية قريش ومسامرها طوال تلك المدة ، مقفرة خلاء

وغشيت بيوتها غاشية من القلق والهم والانتظار

وتعلقت العيون والقلوب بمشارف الطريق الآتى من الشمال ، ترقب عودة الركب الراحل ...

وأرهفت الآذان لعلها تتسمع نبأ عن مصير الفتى العزيز

وتوقفت الحياة أو كادت فى تلك الأيام العشرين ، فقد غاب عن « مكة » أميرها وفتاها ، ومعهما سادة قريش ونجومها الزهر

وراح العبيد والاماء يسعون بين الدور وبين ممر القوافل ، يلتمسون هنالك وافدا من « خيبر » يعرف شيئا من أنباء الركب الغائب

وشهدت الليالى نفرا من العقائل الكريمات ، يتسللن من أحياء قريش محجبات بستار من الظلمة الحالكة ، فاذا بلغن الحرم تعلقن بالكعبة مبتهلات متوسلات ، ثم انطلقن على اثر ذلك الى « المسعى » بين الصفا والمروة ، يدعون الله أن يستجيب لضراعتهن كما استجاب لضراعة « هاجر » فى هذا المكان ، وأن ينقذ « عبد الله » كما انقذ جده « اسماعيل » !

ثم كان لهذا كله آخر ، حين لاحت على الأفق الشمالى سحب من غبار مستثار ، تكشفت عن قافلة تغذ السير الى «مكة»، فعرج الغلمان على قمم الروابى ورءوس الجبال ، يستكشفون أمر القافلة ، فاذا الركب يدخل « مكة » على عجل ساعيا نحو ساحة الحرم ، وهناك ترجلوا جميعا ولبثوا قائمين يدعون ، على حين مضت رسلهم الى أحياء قريش تجمع الابل وتسوقها نحو « البيت العتيق »

وسعى غلام من موالى « بنى زهرة » ، يحدث سيدات البيت القرشى عما شاع فى البلد الحرام وذاع ، من خبر الكاهنة والنذر :

حدثوا أن القوم انطلقوا حتى جاءوها بخيبر ، وقص عليها « عبد المطلب » خبره وخبر ابنه « عبد الله » وما أراد به وفاء بنذره فيه . فقالت لهم :

ـ ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله . . .

فلما مضوا عنها قام « عبد المطلب » ليلته يدعو ربه ، ثم غدوا عليها فقالت لهم :

ـ قدَ جاءنى الخبر : كم الدية فيكم ؟

اجابوا : عشر من الابل

قالت :

ـ فارجعوا الى بلدكم وقربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الابل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل عشرا فعشرا حتى يرضى ربكم ، وان خرجت على الابل فانحروها عنه ، فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم »

ولم يكد الغلام يتم قصته ، حتى سمعت نساء « وهب » ضجة عالية تقترب ، فقمن يستطلعن الخبر ، فاذا جماعة من وجوه «هاشم وقريش» ، يتقدمهم « عبد المطلب » والى يمينه ... « عبد الله » وهم يقتربون من بيت سيد «زهرة»

اذن فقد نجا فتى هاشم !

ما أوسع رحمتك يا رب !

وهمت « آمنة » بأن تسعى الى أبيها لتسأله كيف كانت النجاة ، لولا أن فوجئت بأبيها نفسه يقف بباب الدار مرحبا بالوافدين الكرام

العرس

« ثم انصرف عبد المطلب آخذا بيد عبد الله ـ اثر افتدائه من الذبح ـ فخرج حتى اتى به وهب ابن عبد مناف بن زهرة .. وهو يومئذ سيد بني زهرة نسبا وشرفا ، فزوجه ابنته آمنة .. »

ابن اسحاق

فيم كان مقدمهم ؟

لم يطل بآمنة الوقت لتعرف الخبر السعيد ، فلقد أقبلت عليها أمها « برة » بعد قليل ، متهللة الوجه مشرقة الأسارير ، لتحدثها عن « عبد الله » كيف افتدى من النحر :

« قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشرا من الابل ، وضربوا فخرج القدح على عبد الله

« فزادوا عشرا من الابل وقام عبد المطلب يدعو ربه ، ثم ضربوا ، فخرج القدح على عبد الله

« فزادوا عشرا أخرى وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا ، فخرج القدح على عبد الله ...

« ثم ما زالوا يزيدون عشرا بعد عشر ، فيخرج القدح على عبد الله . . .

« حتى بلغت الابل مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على الابل ، فهتفت قريش ومن حضر :

ــ قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب !

فهز رأسه فى ارتياب ثم قال :

ــ لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات !

« فضربوا على عبد الله وعلى الابل المائة ، وقام « عبد المطلب» يدعو الله،فخرج القدح علىالابل ، ثم عادوا الثانية، فالثالثة ، والقدح يخرج عليها !

« واذ ذاك اطمأن قلب الشيخ المؤمن ، ونحرت الابل ثم تركت لا يصد عنها انسان ولا سبع ! »

وسكتت الأم « برة » وقد بان عليها أنها لاتزال تطوىالذى جاءت من أجله ، وراحت ترقب أسارير ابنتها « آمنة » فى لهفة ، لكن الفتاة أفلحت فى أن تخفى رغبتها فى معرفة بقية الحديث ، وراء قناع رقيق من المداراة ، ودلها قلبها على أن أمها ما جاءت تقص عليها قصة الفداء الا تمهيدا لشأن آخر أجل وأخطر . . .

واذ هما فى مجلسهما ذاك ، ترنو احداهما الى الاخرى كأنما تريد أن تعرف ماذا تخفى ، دخل عليهما « وهب » ليقول لابنته فى رقة وحنو :

« أن شيخ بنى هاشم قد جاء يطلبهـا زوجة لفتـاه عبد الله » !

وعاد من فوره الى ضيفه الكريم ، وترك « آمنة » فى شبه ذهول ، ما لبثت أن افاقت منه على صوت قلبها يخفق عاليا حتى ليكاد يبلغ مسمع أمهـا الجالسة الى جوارها : احقا آثرتها السماء بفتى هاشم زوجا ؟

ووضعت « آمنة » يدها على هذا القلب وقد خشيت أن ينم خفقانه عن عنف انفعالها بالذى سمعت ، ولم تفت هذه الحركة امها . فاحتضنتها فى حنو غامر ، خدر مقاومة الفتاة فأسلمت نفسها الى صدر الأم ، وأباحت لقلبها أن يخفق كيف شاء !

◻

وطاب لها أن تبقى هكذا فى حضن أمها : صامتة هادئة ، لولا أن سيدات الأسرة توافدن واحدة فى اثر اخرى ، مهنئات مباركات

واحطن بالعروس يتحدثن عما ترامى اليهن من تعرض نساء من قريش « لعبد الله » ووقوفهن فى طريقه بين الحرم ودار « وهب » ، يعرضن أنفسهن عليه عرضا صريحا بادى اللهفة

وسمعت « آمنة » من حديثهن ذاك عجبا !

سمعت أن « رقية بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى » القرشية الأصيلة ، استوقفت « عبد الله » قريبا من الكعبة فقالت له :

ـ اين تذهب يا عبد الله ؟

فأجاب فى ايجاز :

ـ مع أبى

قالت « رقية » :

ـ لك مثل الابل التى نحرت عنك اليوم ، أن قبلت أن اهب لك نفسى الساعة !

فرد عليها معتذرا فى تلطف :

ـ أنا مع أبى ، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه ..

وقيل ان « فاطمة بنت مر » ـ وكانت من أجمل النساء وأعفهن ، أو كانت كما ذكر ابن الأثير ، كاهنة من خثعم ـ دعته الى نكاحها فابى ...

وقيل كذلك أن « ليلى العدوية » عرضت نفسها عليه يومئذ ، فلم يستجب لها ...

▭

بهذا ومثله كانت النساء يتحدثن الى « زهرة قريش » حين توافدون عليها للتهنئة

وقائلة تقول :

ـ اعذرن هؤلاء المتعرضات لعبـــد الله ، فما راين مثله وسامة وسحرا

فتعقب أخرى :

ـ يا للفداء الغالى ! هل سمعتن باحد افتدى قبله بمائة من الابل ؟

وتضيف ثالثة :

ـ هنيئا لك يا « آمنة » ، لقد ظفرت بمن « تقطعت قلوب سيدات مكة من أجله » !

ترى هل حدث ذلك كله حقا ؟

اكثر المؤرخين الأقدمين يروونه فى غير شك ولا ارتياب ، اما المحدثون فنرى منهم « الدكتور محمد حسين هيكل » يقرر أن الوقوف لتقصى أمثال هـذه الروايات عن تعرض النساء لعبد الله ، لا غناء فيه ، وكل ما استطاع الدكتور هيكل أن يطمئن اليه ، هو « أن عبد الله كان شابا وسيما قويا ، فلم يكن عجبا أن تطمع غير آمنة فى الزواج منه ، فلما بنى بها تقطعت بغيرها أسباب الأمل ولو الى حين »

على حين نسمع « بودلى » يقول فى كتابه (الرسول) :

« وكان عبـد الله قد اشـتهر بالوسامة ، فكان أجمل الشباب وأكثرهم سحرا وذيوع صيت فى مكة ، ويقال انه لما خطب آمنة بنت وهب ، تحطمت قلوب كثـيرات من سيدات مكة »

ولو كنا هنا نعرض حياة « آمنة » عرضا تاريخيا بحتا ، لوجدنا فى الوقوف لتقصى هذه الروايات غناء كثيرا ، أما ونحن نعرض المادة التاريخية عرضا فنيا قصصيا ، فلامعدى لنا عن الالتفات الى كل هذا والاهتمام بالصغيرة والكبيرة فيه ، كيما ننتفع بها فى التلوين الفنى لصورة التى ولدت بطلنا الأعظم

ونكاد لا نشك فى أن « آمنة » سمعت وهى على وشك الزفاف ، كثيرا عن تطلع غيرها من القرشيات الى فتـاها الموموق ، وانها تلقت التهنئة الحارة بزواجهـا من الشاب الهاشمى الذى ملأ الأسماع بقصة فدائه ، كما ملأ الأعين بسحر جماله ونضارة حيويته

حتى اذا نفضت النسوة ما لديهن من أحاديث ، غابت « آمنة » عن المجلس وهى فيه حاضرة : كانت تفكر فى فتاها الذى لم يكد يفتدى من الذبح حتى هرع اليهـا خاطبا ، زاهدا فى كل انثى سواها ، غير ملق أذنيه الى ما سمع من دواعى الاغراء !

واستمرأت طعم تأملاتها فى زحمة المهنئات ، ولذ لها أن تغيب عنهن وهى بينهن حاضرة ، فراحت تتمثل « عبد الله » وهو يدارى عواطفه طويلا فلا يتقدم لخطبتها أو يعرف مصيره ، حتى اذا نجا لم يهرع الى داره وآله ، وانما كانت دار « آمنة » قبلته بعد الحرم ، ومقصده اثر النجاة ومبتغاه، فهو يسعى اليها لم يكد يطيق الصبر عنها لحظة بعد الفداء

كم فكر فيها « عبد الله » ؟ !

وماذا عانى حين التزم الصمت والانتظار ؟

وكيف يكون لقاؤهما بعد كل الذى احتمله وعاناه ؟ !

أسئلة عرضت لآمنة وهى فى حلمها المستغرق ، حتى افاقت منه على ضجة الدار تتهيأ لعرس عاجل قريب

▭

كانت قصة الفداء قد هزت قلوب المكيين تعلقا بالشاب الذى مست الشفرة منحره وهو صابر مستسلم لأمر الله ، راض بقدره ، حتى اذا لم يبق بينه وبين الموت الا قيـد شعرة ، انقذه الله بأغلى فدية عرفها العرب !

وأضيئت المشاعل فى شتى أرجاء البلد الحرام الآمن ،

وحفلت دار الندوة بوجوه قريش وساداتهـا ، وسهرت مسامر البلدة المقدسة تسترجع قصة الذبيح الأول حين مضى به أبوه « ابراهيم » الى قمة الجبل لكى يذبحه طاعة وتعبـــدا ، فافتداه الله بكبش بعد أن كان من الموت قاب قوسين أو أدنى

انها القصة التى تناقلها آباؤهم وأجدادهم طبقة بعـد طبقة ، وجيلا بعد جيل ، تعود فتمثل على المسرح نفسه فى البيت العتيق الذى رفع ابراهيم قواعده واسماعيل

والبطل اليوم هو حفيد أصيل من ذرية « اسماعيل » التى انتشرت فى الارض وتوارثت مجد الجدود

وربما خطر لبعض الســمار فى ليـلة العرس تلك ، ان يصلوا ما بين الذبيحين « اسماعيل وعبد الله » ، وربما ابعد واحد او اكثر ، فحاول أن يتلمس وراء ستار الغد المحجب ، ما ينتظر « عبد الله » من أمر ذى شأن ، كذلك الذى كان لاسماعيل بعد الفداء

□

واستغرقت الأفراح ثلاثة أيام بلياليها ، كان «عبد الله» اثناءها يقيم مع عروسه فى دار ابيها على عادة القوم ، حتى اذا أشرق اليوم الرابع ، سبقها الى داره كى يهيئهـا لاستقبال الوافدة العزيزة ، على حين مضت هى فى ذاك اليوم تملأ عينيها من الدار التى استقبلتها وليدة ورعتها صبية وفتاة ، وانضجتها عروسا

ثم راحت تودع اهلها واترابها وصواحب صباها الغرير .

وشغلها ذلك كله ساعات النهـار وقطعـة من المساء ، ثم جمعت نفسها وسارت فى رفقة من آلها متجهة الى دنياها الجديدة ، وهى تتلفت بين خطوة وأخرى الى الربوع التى خلفتها من ورائها ، فتحس لفراقها لذعة خفية من شجو وحنين ، زادهما المساء الساجى مرارة وعذوبة معا !

واستغرقتهـا مشاعرها ، فأمسكت طوال الطريق عن الـكلام ، وسارت خاشعة مخدرة ، كأنهـا طيف رقيق يسرى حالما !

حتى تلقاها « عبد الله » على باب داره متلهفا مشوقا ، فرفعت اليه وجهها المليح ، وقد أضاءه شحوب خفيف ، وتألقت فى عينيها دمعتان صافيتان كحبتى لؤلؤ ...

وأدرك « عبد الله » ماذا بها ، فلم يشأ أن ينقلها بغتة من ذكريات ماضيها الذى فارقته وشيكا ، بل قادها فى رفق الى رحبـة الدار الواسعة ، حيث أعدت هنـالك مجالس للضيوف الأعزاء الذين صحبوا العروس الى بيتها

وراح يريها بيتها الجديد

ولم يكن البيت كبيرا ضخم البناء ، لكنه اذا قيس ببيوت مكة يومئذ ، عد رحبا مريحا لعروسين يبدآن حياتهمـا المشتركة

كان (١) ـ كما وصفه « محمد لبيب البتانونى » فى كتابه

---

(١) قيل ان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهب هذه الدار لابن عمه « عقيل بن أبى طالب » الذى صرع بالكوفة قبيل مذبحة كربلاء ، فباعها ولده لمحمد بن يوسف الثقفى أخى الحجاج ، فلما بنى داره المشهورة بدار ابن يوسف ، أدخل دار عبد الله فيها وكانت الى جوارها ، حتى اشتـرتها « الخيزران » وفصلتها وأعادت بناءها كما كانت ، وجعلتها مسجدا

(الرحلة الحجازية) ــ ذا درج حجرى يوصل الى باب يفتح من الشمال ، ويدخل منه الى فناء يبلغ طوله نحو اثنى عشر مترا فى عرض ستة أمتار ، وفى جداره الأيمن باب يدخل منه الى قبة فى وسطها ــ بميــل الى الحائط الغــربى ــ مقصورة من الخشب ، أعدت لتكون مخدع العروس

وترك « عبد الله » عروسه فى مخدعها مع رفيقاتهــا من سيدات « آل زهرة » ، ثم خرج الى رحبة الدار الواسعة ، حيث الضيوف الأعزاء الذين صحبوا العروس الى بيتها

ومضى وهن من الليل والقوم ساهرون ، يباركون العتبة الجديدة التى انتقلت اليها زهرة قريش ، ويدعون للزوجين الكريمين : أعز من عرفت الحجاز حسبا وأعرقهم نسبا

البشرى

وسمعت هاتفا يهتف بها فى رؤياها :
((انك قد حملت بسيد هذه الأمة))

ثم آب الضيوف الى منازلهم ، وهجع الكون وسكنت الدنيا ، و ((عبد الله)) جالس الى ((آمنة)) يؤنسها بحديث شائق عما رأى فى رحلته الى كاهنة الحجاز

سألته العروس وقد أنساها لطفه ما كانت تحسه من شجن لفراق آلها :

ـ هلا حدثتنى يا عبدالله عن أولئك النسوة اللاتى شغلنك فى أيامك هذه ؟

فانبسطت أساريره لاقبالها عليه وقال يجيبها :

« ما شغلننى عنك قط يا آمنة ، ولكنه الذى سمعت من تعرضهن لى ، وانصرافى عنهن اليك وحدك !

« على أن للقصة بقية لما تسمعى بها ، لأنها حدثت فى يومنا هذا اذ كنت عائدا من بيت أبيك لكى اهيىء دارى لاستقبال ملكتها الغالية ، وشغلت بهذا يومى كله ، فلم أكد أحدث أحدا بما كان ! »

قالت وقد استثار أشواقها لمعرفة القصة :

ـ أخاطبات جديدات يطلبن القرب من فتى مكة الأوحد ؟

فتبسم ضاحكا من دعابتها الحلوة وأجاب :

ـ كلا يا آمنة ، بل زاهدات فيه منصرفات عنه ، كأن لم يكن هو نفسه الذى تعلقن به منذ بضعة أيام ، وأنستهن رغبتهن فيه ما عرف عن مثلهن من صد وتمنع !

وأمسك فترة يرنو الى صاحبته ، كأنه يريد أن يلمس وقع الحديث عليها ، فما زادت على أن أومأت اليه ليمضى فى قصته

فاستجاب لايماءتها واستطرد يقول :

ـ أجل يا ابنة وهب ! زاهدات فى فتاك كأنه ابدل خلقا جديدا : مررت بهن اليوم فى طريقى بين دار أبيك ودارنا هذه ، فأشحن عنى بوجوههن معرضات ، الى حد أن دفعنى الشوق لمعرفة سر هـذا الانقـلاب ، الى أن أسأل احداهن « رقية بنت نوفل » :

« مالك لا تعرضين على اليـوم ، ما كنت عرضت على بالأمس ؟ »

فكان جوابها العجيب أن قالت :

« فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة ! »

وكذلك أعرضت عنى «فاطمة بنت مر» قائلة : « يا فتى ، ما أنا بصاحبة ريبة ولكنى رأيت فى وجهك نورا فأردت أن يكون لى ، فأبى الله الا أن يجعله حيث أراد ، فما صنعت بعدى ؟ »

قلت : « زوجنى أبى آمنة بنت وهب »

فأنشدت :

لله ما « زهـــــرية » سلبت

منك الذى استلبت وما تدرى !

ولما سألت الثالثة : « ليلى العدوية » ماذا صدها عنى ؟ أجابت :

« مررت بى وبين عينيك غرة بيضاء ، فدعوتك فأبيت على ، ودخلت على آمنة فذهبت بها »

☐

وصمت « عبـد الله » وسكنت العـروس ، وقد راحا يفكران فى ذلك الموقف الغريب الذى وقفته نسوة قريش من « عبد الله »

ثم كانت « آمنة » هى التى قطعت الصمت فجأة ، بأن طلبت من زوجها أن يعيد عليها ما كان بينه وبين « رقية بنت نوفل »

فتساءل « عبد الله » وقد رابه ما يبدو عليها من اهتمام :

— ولماذا تسألين عن رقية هذه دون سواها ؟

أجابت « آمنة » فى جد :

— ستعرف بعد ، فهلا أعدت لى ما قالت « رقية » ؟

فلم يسع « عبد الله » الا أن يقول :

ـ سألتها : مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضت على بالأمس ؟

فأجابت : فارقك النور الذى كان معك ، فليس لى بك اليوم حاجة

فعلقت « آمنة » بعد فترة تأمل :

ـ والله يا ابن العم ، انى لأرى لهذا الأمر ما بعده ، فرقية اخت « ورقة بن نوفل » وهو ـ كما تعلم وأعلم ـ قد تنصر واتبع الكتب ، وبشر بأن سيكون فى هذه الأمة نبى !

فحدق « عبد الله » فى زوجته مليا ثم هتف :

ـ ترين يا آمنة أننا . . .

فلم تدعه « آمنة » يكمل عبارته ، واستغرقت فى حلم شائق مثير ، استعادت فيه كل الذى كانت الجزيرة تمتلىء به من شائعات وارهاصات عن النبى المنتظر !

□

ونامت ليلتها ، وما تكف هذه الرؤيا عن الالمام بها ، و « عبد الله » الى جانبها ساهر يقظان ، يرقب فى نورالفجر الوليد تلك الابتسامة الرقيقة التى يتألق بها وجهها الحلو ، وهى نائمة

حتى اذا دنا الصبح ، استيقظت العروس « آمنة » من نومها الهنيء وأقبلت على زوجها تحدثه عن رؤياها :

رأت كأن شعاعا من النور ينبثق من كيانها اللطيف فيضىء الدنيا من حولها حتى لكأنها ترى به قصور بصرى من أرض

الشام . وسمعت هاتفا يهنف بها : « انك قد حملت بسيد هذه الأمة ... »

وبقى « عبد الله » مع عروسه أياما لم يحدد لنا التاريخ عددها ، ولكنها عند جمهرة المؤرخين لم تتجاوز عشرة أيام ، اذ كان عليه أن يلحق بالقافلة التجارية المسافرة الى الشام

واغلب الظن أن كلام « رقية بنت نوفل » عن النور الذى فارق عبد الله الى آمنة ، قد شغل أويقات السمر فى تلك الأمسيات المعدودات التى قضاها العروسان معا قبل أن يفترقا ، وأن الأحلام قد حلقت بهما فى آفاق عليا ، خايلتهما فيها أمنية عزيزة غالية ، قل من شارفها أو طمح اليها

الكتاب الرابع

العروس الأرملة

١ ـ فراق

٢ ـ رسول الى يثرب

٣ ـ غائب لا يئوب !

فراق

ثم حانت ساعة الفراق !

وودع « عبد الله » زوجته الحبيبة حين اذن المؤذن برحيل القافلة ، فتشبثت « آمنة » بفتاها وقد أحست كآبة غامرة شحب لها وجهها وارتعد كيانها ، فربت « عبد الله » على يدها الصغيرة فى حنو ، وهو يظن أن الذى بها لا يعدو أن يكون وحشة الفراق الوشيك

ثم انتزع نفسه منها انتزاعا ، ووقف فى فناء الدار يقول لها وهو يتكلف التصبر ويتجمل بالمداراة :

ــ ان هى الا بضعة أسابيع ، ثم أعود اليك يا آمنة على جناح الشوق واللهفة

فهمست فى صوت أبح مختنق :

ــ وماذا أصنع بنفسى وانت بعيد ؟

اجاب متضاحكا :

ــ تسامرين طيفى الذى لن يبرح مطيفا بك محوما عليك ، وترعين قلبى الذى أدعه هنا وأسافر بجسم ينزع ابدا الى أعز موضع ، ويحن الى أحب وأجمل من خلق الله !

فتراخت يداها وانت فى ضعف :

ـ ويلى يا عبد الله من ليالى الطوال !

فصاح بها وهو يخطو نحو باب البيت ووجهه اليها :

ـ لا ويل لك يا آمنة ! ستشاغلك طوال لياليك أحلام عذاب . أفنسيت حديث « رقية بنت نوفل » ورؤيا الأمس القريب ؟

واذ بلغ الباب ، انفلت مسرعا قبل أن تخونه شجاعته وتغلبه عواطفه ، على حين بقيت « آمنة » حيث كانت ، واقفة بباب مخدعها المقفر ، وقد وضعت يدها على قلبها خشية أن يتصدع ...

وادركتها بعد ساعة جاريتها « بركة أم أيمن » فقادتها برفق الى فراشها ، ثم جلست الى جانبها ترعاها مشفقة عليها مما تلاقى ...

ومرت أيام وليال ، و « آمنة » فى فراشها لا تبرحه ، تسامر أشجانها وترسل قلبها فى اثر الحبيب الراحل . وقد حاول أهلها ، كما حاول « عبد المطلب » أن يصرفوها عن وحدتها حرصا على صحتها ، لكنها آثرت العزلة على الأنس بالأهل والصواحب ، بل لعلها كرهت أن يفسد أحد عليها هذه العزلة ، لما كانت تجده فى مسامرة طيف الغائب ، من شجن ولذة

ومضى شهر لا جديد فيه سوى أن « آمنة » شعرت

بالبـادرة الأولى للحمـل ، فودت لو طارت بالبشرى الى « عبد الله » ثم استعادت شيئا من اشراقها ، وقد هون عليها مرارة الفـراق أن أكثر أيامه قد تصرمت ، وأن كل يوم يدنيها من اللقاء المنتظر ، ويزيدها يقينا من الحادث السعيد الذى ترجو أن تلقى به زوجها فى اللحظة التى يؤوب فيها !

واهل الشهر الثانى أو مضت قطعة منه ، وآن للقافلة أن تعود ، فتهيأت « آمنة » للقاء وشيك ، وراحت تعـد ما بقى من أيام وليال ، وتتمثل زوجها وقد عاد اليها متلهفا يحدثها عما لقى فى بعدها من حر الشوق ولوعة الحنين . ولكن هل تراها تستطيع أن تصبر فلا تفاجئه ببشراها ؟ أم هل تراها قادرة على أن تكتم عنه ما تراءى لها من أحلام اليقظة ورؤى المنام ، ريثما تستمتع بحديثه الشهى العذب ؟

بهـذا شغلت « آمنـة » فى الفترة التى سبقت عودة الغائب ، حتى اذا لاحت طلائع القافلة ، خفق قلبها فى عنف ، ووقفت فى ساحة الدار مما يلى الباب الخارجى ، تنتظر أن يفتح بين آونة وأخرى ، وتشرق منه طلعة الحبيب

وطال بها الانتظار حتى ساورتها شكوك مبهمة وخوف طارىء ، فتنبهت فجأة الى غيبة جاريتها « أم أيمن » وكانت قد ذهبت منذ شاع خبر قدوم المسافرين ، كى تعود فتبشر سيدتها على عجل بأنها رأت « عبـد الله » رأى العين ، وتصف لها حاله بعد غيبة طالت !

وتناهى الى أذنيهـا ضجيج اللقـاء فى الدور المتاخمة

لدارها ، فأين عبد الله ؟ ما الذى امسكه عنها فلم يخف اليها طائرا ؟

لعله لقى — فى طوافه بالكعبة اثر عودته — من احتجزه حينا

أو لعل أباه الشيخ آت فى صحبته ، فما يستطيع عبد الله الا أن يمشى على مهل ، احتراما لشيخوخة أبيه

أو لعل ...

رسول الى يثرب

واخيرا ، احست خطوات وانية تدنو من الدار ، فتعلقت عيناها بالباب وهى لا تكاد تتماسك من انفعال ، حتى اذا فتح الباب بعد لحظة طالت كأنها دهر ، خذلتها قدماها ، فتسمرت حيث هى : واجمة خائفة !

لم يكن « عبد الله » هو القادم ، وانما جاء « عبد المطلب » الشيخ فى صحبة أبيها « وهب » ونفر من الأهل الأدنين ، وقد غشيت وجوههم جميعا غاشية من القلق

وكانت « أم أيمن » تمشى فى أثرهم متخاذلة مطرقة ، تحاول أن تخفى دمعة أفلتت من مقلتيها

وقال « وهب » وهو يتحاشى النظر الى وجه ابنته :

ـ بعض الشجاعة يا آمنة ، فما فى الأمر ما يدعو الى مثل ذلك الجزع الأليم . لقد عادت القافلة وكنا فى انتظارها بالحرم ، فلما افتقدنا « عبد الله » أخبرنا رفاقه أن وعكة طارئة الت به وهو فى طريقه الينا ، وعما قريب يبرأ ويعود سالما اليك والى مكة وقريش

وانحلت عقدة ربطت لسان « عبد المطلب » فعقب قائلا :

ـ هو ذاك يا آمنة ... وعكة بسيطة ولا شىء أكثر . وقد قال الرفاق : « خلفناه بيثرب عند أخواله من بنى

مخزوم » فبعثت اليه اخاه الحارث ، كى يكون معه ، ويصحبه فى طريقه الينا ، فثوبى الى صبرك ، وادعى له . . . »

قالت فى ضعف :

ــ افعل يا عم !

وانصرفت من فورها الى الصلاة والدعاء ، فلم تكد تشعر بالقوم حولها ، حتى غادروها الى الكعبة خاشعين ضارعين

□

واتم الشهر الثانى دورته ، و « آمنة » على حالها تجاهد ما استطاعت أن تذود عن قلبها اليأس ، فاذا عز عليها ذلك لاذت بالدعاء ، لعل الله يرد عليها ذاك الغائب الذى افتدى بالأمس أغلى فداء . . .

وكانت تعاودها ــ فى لحظات نومها القصيرة ــ رؤيا ملحة ، عن جنين عظيم تطويه أحشاؤها ، وتسمع الهاتف يبشرها بأمجد بنوة ، فاذا آبت الى يقظتها ، شق عليها ألا تجد « عبد الله » بجانبها ، تفضى اليه بالذى ترى وتسمع

غائب لا يئوب

ثم ...

عاد « الحارث بن عبد المطلب » وحده ...

عاد لينعى أخاه الشاب ، الى أبيه الشيخ ، وزوجه العروس ، والقرشيين جميعا ...

لقد غاله الموت وهو بين أخواله من بنى مخزوم ، اثر رحيل القافلة التى تخلف عنها

ودفن هناك — على أرجح الأقوال — ولم يقبل فيه هذه المرة اى فداء !

▭

ووجمت « آمنة » للخبر ، وقست عيناها فما تسعفانها ببكاء

وأعفاها ذهولها من الانهيار والتصدع ، فلبثت أياما لاتكاد تصدق النعى ، حتى اذا تيقنت من الكارثة ، فاضت عبراتها ، وقيل انها رددت فى لوعة :

عفا جانب البطحاء من زين هاشم
وجاور لحدا خارجا فى الغماغم

دعتــــه المنـــايا دعوة فأجابهـــــا
وما تركت فى الناس مثل ابن هاشم

عشـــــية راحوا يحمـــــلون سريره
تعـــاوره أصحـــــــابه فى التزاحم

فان تك غالتــــــه المنون وريبهـــا
فقـــــد كان معطاء كثـــير التراحم

ثم أمسكت لا تزيد

□

ولبست « مكة » كلها ثوب الحداد على فتاها الذى غالته المنون غريبا ولما ينزع عنه ثوب العرس ، وضحلت من النواح عليه حلوق بحت من الهتاف له حين احتفلت بفدائه منذ شهرين وأيام ...

كانت سنه اذ ذاك ، ثمانية عشر عاما ، فيا للشباب الفتى النضير ، يهتصره الموت اثر فرحة الفداء !

ويا للعروس الشابة ، تترمل هكذا سراعا ، وما يزال فى يديها خضاب العرس !

الكتاب الخامس

أم اليتيم

١ ـ الجنين

٢ ـ الوليد

٣ ـ الرضيع

الجنين

أشرق النور فى العوالم لما
بشرتها بأحمد الأنبيـــاء
« شوقى »

وفض المأتم ..

لكن القوم لم يفرغوا من صاحبه الثاوى فى لحده بعيـدا بيثرب

كانوا فى حيرة من أمره :

ما دام الله قد كتب عليه الموت هكذا سريعا ، ففيم كان الفداء ؟

من كان يظن ، حين نحرت الابل المائة بالحرم ، وتركت لا يصد عنها انسان ولا سبع ، أن المنايا واقفة بالمرصـاد للذبيح المفتدى ، على قيد خطوات معدودات ؟

بهذا شغل القوم

وفى مثله كانت « آمنة » تفكر وهى فى وحدتها تجتـر أحزانها ، وتكابد الذى تجد من لوعة المصاب ، حتى خيف عليها الهلاك فتتابع أهلها يحاولون أن يعزوها ، وهى تأبى أن تقبل فى « عبد الله » عزاء ..

وناشدوها الصبر الجميل ، فأنكرت على نفسها الصبر ، ووجدت فيه جحودا وغدرا بالحبيب الذى رحل

وأوجس « آل هاشم وزهرة » فى نفوسهم خيفة ، أن تشتد وطأة الحزن على « آمنة » فتذهب بها ، ولبثت «مكة» شهرا وبعض شهر ، وهى ترقب فى قلق ، الى أين تنتهى الأحزان بالأرملة العروس ...

□

حتى كانت ليلة من ليالى شوال ، أحاط فيها العواد بفراش « آمنة » وهى فى غمرة أحزانها لا تفتأ تسائل كل وافد ووافدة من أهلها :

ــ فيم كان فداؤه اذن ، ما دام الله قد كتب عليه الموت العاجل ؟

ــ فيم كان العرس الحافل ، ويد القدر تحفر له لحده بيثرب ؟

ثم أدركها الاعياء فأغفت مجهدة والعيون ترقبها فى حنان وقلق وارتياب ، على أنها ما لبثت أن صحت منغفوتها وقالت لمن حولها :

« كأنى عرفت سر الذى كان : ان عبد الله لم يفتد من الذبح الا لمهمة عظمى ! لقد أمهله الله ريثما يودعنى هذا الجنين الذى أحسست به اللحظة يتقلب فى أحشائى، والذى من أجله يجب أن أعيش ... »

ومن تلك اللحظة الحاسمة ، أنزل الله سكينته على «آمنة»

فطوت أحزانها في أعماقها ، وبدأت تفكر في ابنهـــا الذى يحيا بها ويحييها ...

ولا أستطيع أن أنتقل الى الحديث عن أمومة « آمنـــة » قبل أن أقف لحظة لأشير الى اختـــلاف الروايات في وفاة « عبد الله » :

هل كانت والابن جنين في رحم أمه ؟

أو كانت بعد أن وضعته ؟

الأعرف بين جمهور المسلمين ، أن الرسول ولد يتيما ، وقد اكتفى بهذا « ابن اسحاق » دون أن يشير الى أى خلاف فيه . قال :

« ... ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن هلك وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به »

ونقل « ابن هشام » عبارته هذه ، من غير أن يضـيف اليها أو يعلق عليها بما يشـعر أن القوم على عهده اختلفوا فى هذا

ونقل « ابن الأثير » فى (الكامل) أن « الزهرى » قال:

« أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله الى المدينة يمتار لهم فمات بها ، وقيـــــل بل كان فى الشام فاقبـــل فى عير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض ، فتوفى بها .. قبل أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم »

كما نقل فى موضع آخر (٢/١٣) أن « أبا طالب » قال للراهب « بحيرا » عندما سأله عن محمد : « انه ابن أخى ، مات أبوه وأمه حبلى به »

لكن « السهيلى » نقل فى (الروض الأنف) : أن «أكثر العلماء على أن عبد الله مات والرسول فى المهد : قيل ابن شهرين ، وقيل أكثر من ذلك .. وقيل مات أبوه وهو ابن ثمان وعشرين شهرا »

ونقل ناشرو (السيرة) بالهامش عبارة « السهيلى »التى ذكرناها آنفا ، بلا محاولة لتحقيقها

وأشار « البرزنجى » فى (مولده) الى الخلاف اشـارة عابرة فقال :

« ولما تم لحمله شهران على مشهور الأقوال المروية ،توفى بالمدينة المنورة أبوه عبد الله ، وكان قد اجتاز بأخواله فى مرضه عائدا من الشام » ـ ص ١٢

وعلق « عليش » على هذا فى شرحه للمولد ، فذكر من الأقوال المروية التى أشار اليها البرزنجى : أن أبا الرسول توفى وهو ابن سبعة أشهر ، وقيل ابن ثمانيـة وعشرين شهرا ...

▭

وندع هؤلاء الى المحدثين ، فنجد عند أكثرهم اطمئنانا الى رواية من قالوا ان عبد الله توفى وابنـــه جنين . قال بودلى :

« وكان عبد الله بن عبد المطلب أحب أبنائه اليه ، وكان من المرجح أن يرث مركز أبيه وماله ، لكن الموت لم يمهله ، فقد خطفه فى يثرب وهو فى رحلة تجـارية ، عقب زواجه من « آمنة » ولم يقدر له أن ينعم برؤية ابنه الذى رأى النور

فى أغسطس سنة ٥٧٠ م بعد وفاته بشهور » ـ ص ٢٨

و « فيليب حتى » فى (تاريخ العرب : ١٣٥ من الطبعة الثانية للترجمة العربية) يذكر موت عبد الله قبل مولد ابنه ، ثم لا يشير الى خلاف فى ذلك

وتحدث « الدكتور هيكل » مطمئنا غير مرتاب ، عن سفر عبد الله الى الشام فى رحلته الأخيرة ، تاركا «آمنة» حاملا ، وقد تقدمت بها أشهر الحمل من بعده حتى وضعت فبعثت الى عبد المطلب عند الكعبة ، تخبره أنه ولد له غلام

غير انا نجد عن بعض المفكرين المحدثين ـ أذكر منهم أستاذنا أمين الخولى ـ ميلا الى الرواية القائلة بأن محمدا ولد قبل أن يموت أبوه ، وهم لا يستندون فى ذلك الى دليل نقلى ، بقدر ما يستأنسون بما اطمأن اليه علم النفس الحديث من صلة الجنين بأمه ، وأثر حالتها المعنوية على كيانه كله : جسما وخلقا وأعصابا • وحياة « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ تشهد بسلامة بنائه وصحة أعصابه ، فلقد خاض معارك تكفى واحدة منها لامتحان أصلب الرجال عودا وأثبتهم جنانا وأجلدهم أعصابا ، فكان فيها جميعا البطل المظفر ، وهذا ـ عندهم ـ يرجح ، ان لم يثبت ، أن أمه لم تروع وهى حامل بموت زوجها ، بل أمضت أشهر الحمل آمنة مطمئنة هادئة ، لا يئودها حزن ولا يمضها ثكل ولا يرهقها شجن

ولا نمارى فيما لهذا الرأى من قوة ووجاهة ، لكن يعوزه الدليل النقلى الذى نعده حاسما فيما نحن فيه ، فلقد رأينا أكثر الرواة الأول ، لا يشيرون الى خلاف فى أنه صلى الله

عليه وسلم ولد يتيما ، وهذا هو الذى حملنا على أن نلوذ بالفن لكى نحمل الرواية المشهورة أقصى ما تطيق احتماله من توفير الراحة النفسية للأم الحامل ، رغم حزنها الثقيل وثكلها المفجع ، فاطمأننا الى أن الجنين نفسه ، كان عاملا هاما فى عزائها ، وأن شعورها به يتقلب بين أحشائها ، قد آنس وحشتها وهون عليها ما كانت تلقى من حزن لعله كان يكفى لأن يتلفها ، لو لم ينزل الله سكينته عليها ، ويملأ دنياها بهذا التراث الحى الغالى الذى أودعه عبد الله اياها قبل أن يموت ، فعاشت به وله ...

تسامعت بيوت « مكة » بالنبأ السعيد ، فتوافدت عقائل « قريش » على دار الفقيد ، يهنئن « آمنة » ويصغين الى ما سمعت من بشرى

وكثر الحديث عما ملأ الجزيرة من أقوال عن نبى منتظر تقارب زمانه ، يتحدث بها الأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب

ولعل العرب لم يلقوا بالا — أول الأمر — الى هذا الذى ذاع وانتشر ، غير أنى أكاد أطمئن الى أن « آمنة » قد ألقت كل بالها الى تلك الذائعات ، فما نسيت قط أن زوجها هو الذى استأثر من دون شبان قريش ورجالها بمجد الفداء الذى لم يحدث منذ افتدى اسماعيل

وقد بقى فى مسمعها صدى قوى رنان ، مما ذكرته أخت ورقة بن نوفل وفاطمة بنت مر — وقد كانت فيما روى ابن الأثير كاهنة من خثعم — عن النور الذى انتقل من «عبدالله» اثر زواجه ، والغرة التى ذهبت بها « بنت وهب » فلم تدع

لغيرها من النساء فى « عبد الله » مأربا ...

ثم هى قبل هذا كله ، سيدة من صميم البيئة الرفيعة الحاكمة في مكة ، ومن شأن نساء هذه البيئة ، أن يرنون الى بعيد ، وأن يرجون للأجنة في بطونهن مجدا لم يسبق اليه أحد

□

وكثير من المؤرخين المسلمين ، نقلوا عمن لا يتهمون من الرواة ، ما تراءى « لآمنة » في أحلامها من بشرى يابن عظيم ، وان يكن « الدكتور هيكل » قد مر بهذا عابرا دون أن يشير اليه فقال :

« وتقدمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع كل أنثى » ـ ص ٦٩

وأكثر المستشرقين، يأبون روايات البشرى اباء صريحا، حتى «بودلى» ـ وهو من أكثرهم انصافا واعجابا بالرسول ـ رفض أن يقبل الذى قيل فى رؤى « آمنة » عندما حملت بمن صار نبيا . قال فى كتابه (الرسول) :

« لا توجد أسرار تحيط بمولد النبى ، اذا استثنينا عدة خرافات لا يقبلها عقل : فما كان هناك بشـــائر على أنه المصطفى من الله ، ولا زارت الملائكة أمه قبل مولده ، ولا بشرتها بقدومه ... وانما حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع » (ص ٢٥ من الترجمة العربية)

وانى ليدهشنى أن يصدر مثل هذا الحكم من رجل مثل « بودلى » أعرف فيه الاعتدال ونضوج الرأى . لقد قرر أن

محمدا « حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع » فما باله ينكر عليها ما يجوز على كل أنثى تحمل وتضع في مثل ظروف « آمنة » ؟

لماذا يسمى ما روى عن أحلامها ورؤاها « خرافات لا يقبلها عقل » ؟

أو ليس من حقها — ككل أنثى مثلها — أن تحلم للجنين الذي يتقلب في أحشائها ، بمجد عريض ؟

لو أن « بودلى » استفتى علماء النفس ، لأنكروا عليه أن يسمى أحلام « آمنة » خرافات ! وانما الخرافة حقا أن نجردها من بشريتها وأماني أمومتها ، فما من أنثى تحمل ، الا حلمت لوليدها بأقصى ما تسمح به بيئتها وظروفها ، وقد كانت بيئة « آمنة » ما نعرف عزا وشرفا وعراقة وحسبا ، كما حفت بزوجها « عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم » ظروف فريدة لم يشاركه فيها سواه ، فأى عجب في أن تبعد بآمنة أحلامها فتسمع من يبشرها بأنها ستلد « سيد هذه الأمة » ؟

أو ليست أحق بهذا من « هند بنت عتبة » التى ردت على من بشرها بأن ابنها سيسود قومه قائلة : ثكلته أمه ان لم يسد الا قومه ؟

اننا لا نقول لبودلى وأمثاله : ان النساء قبل « آمنة » وبعدها ، قد عرفن ويعرفن في حالة الحمل ، الهواتف والأحلام ، ولا نرغمهم على تصديق ما ذكره رواة العرب من أن « ليلى بنت مهلهل » هتف بها الهاتف حين حملت بابنها « عمرو بن كلثوم » :

يا لك ليـــلى من ولد
يقدم اقدام الأسـد
من جشم فيه العـدد
أقول قولا ، لا فنـد

فلما استكمل وليدها سنة أتاها ذلك الهاتف ليلا فقال:

انى زعيم لك «أم عمرو»
بماجد الجد كريم النجر
أشجع من ذى لبد هزبر
يسودهم فى خمسة وعشر

قالوا : فساد قومه ولم يجاوز خمس عشرة سنة

وكذلك رووا أن « عتبة بنت عفيف » أتاها الهاتف حين حملت بابنها « حاتم الطائى » فسألها :

ـ أغلام سمح يقال له حاتم أحب اليك ، أم عشرة غلمة كالناس ...؟

فأجابت : بل حاتم !

و « خبيئة بنت رباح الغنوية » ، حدثوا أن هاتفا هتف بها فى منامها ذات ليلة :

ـ أعشرة هدرة (جمع هادر وهو الساقط) أحب اليك أم ثلاثة كالعشرة ؟

وعاودها ثانية ، فقصت رؤياها على زوجها فقال لها :

ـ ان عاد الثالثة فقولى : ثلاثة كعشرة

ففعلت ، وولدت خالدا ، ومالكا ، وربيعة ، وعدت بهم احدى منجبات العرب

بل لا نقول لمن أنكروا على « بنت وهب » أحلامها : ان الحوامل قبلها وبعدها ، والى يوم تنتهى الحياة على هـذه الأرض ، قد عرفن ويعرفن الهواتف والأحلام

وانما حسبنا أن نقول لبودلى :

ـ انك قد اتخـذت من كتاب السـيرة والمؤرخين الاسلاميين الأول ، مرجعك فى كتـابك عن « محمد » ، وزدت فاعتمدت أقوال العرب الذين عاشوا ويعيشون اليوم فى الجزيرة حيث عاش الرسول ، وكانت حجتك : « أنهم لا يتحدثون عن محمد كما يتحدثون عن شخص غامض بعيد أبدا ، لقد كان راعيا ، ارتدى نفس الثياب التى يلبسونها وامتطى ابلا كما يفعلون ، وكان التمـر الذى عاش عليه يشابه تمرهم . انهم ليشاركونه فى كل ما فعله ، فهـو بالنسبة لهم حى كفرد منهم

« لذلك كانت استعادة ذلك المشهد الذى مر عليه ثلاثة عشر قرنا بالنسـبة لى ، أيسر من وصـف جامعى من اكسفورد ، الحياة فى عصر اليزابيث ، وأبسط من كتـابة مؤرخ أمريكى عن الولايات المتحدة قبل حرب الاستقلال

« عاش أناس كثيرون من أصحاب محمد بعده ، فرووا ذكرياتهم عنه لذرياتهم ...

« انى أعرف العرب غن كثب ، وانى أحبهم ، وقد عشت فى خيامهم وأحببتها . وأظن أنى أستطيع أن أفكر كمـا يفكر محمد ، وأحس كما يحس ، وأفهم على التحقيـق مشكلاته »

فما بالك بعد هذا تنكر اجماع كتاب السيرة على ما رأت

« آمنة » من بشائر بمولد ذاك الذى كانت الجزيرة ملأى بالارهاصات عن قرب مولده ؟

الحق انى لا أستطيع أن أنكر من ذلك كله شيئا ، فمبلغ الأمر فيه أنه حالة تعرفها كل أنثى من البشر عانت تجربة الحمل ، واشتهت أن يبلغ ولدها من المجد ما يسبق به قرناءه ورفاقه ، وانما يختلف مدى الطموح ومجال الأحلام، على قدر ما تسعف عليه ظروف كل أم ، وتحتمله امكانياتها، ويمتد اليه بصرها !

وهذه « آمنة » بنت سيد بنى زهرة ، تزوجها « عبد الله ابن عبد المطلب» اثر افتدائه من النحر على نحو يذكر بجده الأعلى اسماعيل ، تزوجها « وهى يومئذ ــ كما يقول ابن اسحق ، شيخ كتاب السيرة ــ أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا »

وسمعت « آمنة » ما سمعت من تعرض النساء لزوجها ثم صدهن عنه لما تزوج بها ، وليكن ذلك ــ فى أدنى حالاته ــ وهما أو تخيلا ، أفلا يؤثر فيها ذاك الوهم حين تحمل جنينها الأول : حفيد المنافَيْن وسليل البيت الهاشمى وآل زهرة ؟

أفكثير على مثلها أن تحلم ، وأن ترجو لوليدها المنتظر أقصى ما يرنو اليه خيالها ، ويمتد اليه أملها ؟

□

والآن فلنعد الى « آمنة » حيث تركناها فى دارها بعد أن غاب عنها « عبد الله » الى غير مآب ، وخلفها فى حزن مستبد ، لم تخفف حدته الا حركة الجنين البكر فى أحشائها

حتى اذا أوشك أن يتم أجله ، جاءها « عبد المطلب » ذات أصيل ، يطلب اليها أن تتهيأ للخروج من مكة مع قريش ، حيث رأى لهم أن يتحرزوا فى شعف الجبال والشعاب ، تخوفا من معرة الجيش الذى جاء به « أبرهة الحبشى » من اليمن

وكانت « آمنة » قد سمعت بقدوم «أبرهة» هذا فى جيش لجب ، لكنها لم تقدر أن الأمر قد بلغ من الخطر حدا يدفع قريشا الى الخروج من بلدهم الأمين

وسألت « آمنة » عبد المطلب :

ــ علمت يا عم أن قريشا وكنانة وهذيلا ومن بالحرم من سائر الناس ، قد أجمعوا على قتال الطاغية ، فما الذى جد فى الموقف حتى يتركوا الكعبة لا يقاتلون عنها ؟

أجاب :

ــ عرفوا ألا طاقة لهم به فكرهوا معركة غير متكافئة ، تذوب فيها قريش أمام العدو ، ثم تئوب بعار الهزيمة

وسكتت « آمنة » برهة ، ثم تذكرت ما سمعت عن لقاء قيل انه كان بين أمير مكة وطاغية الأحباش ، فعادت تسأل عما تم فى ذاك اللقاء

فأجابها الأمير الشيخ :

« أجل كان بيننا لقاء ، سعى اليه أبرهة قبل أن أسعى اليه . ذلك أنه حين بلغ مشارف مكة ، بعث « حناطة الحميرى » وقال له :

ــ سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له ان الملك يقول لك : (انى لم آت لحربكم ، انما جئت لهدم

هذا البيت ، فان لم تعرضوا دونه بحـــرب فلا حاجة لى بدمائكم) فان هو لم يرد حربى فائتنى به

وجاءنى حناطة فأبلغنى رسالة أبرهة وتلقى جوابى :

« والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابرهيم عليه السلام ، فان يمنعـه فهو بيته وحرمه ، وان يخل بينـــــه وبين أبرهة ، فوالله ما عندنا دفع عنه »

قال حناطة :

ـ فانطلق معى فانه قد أمرنى أن آتيه بك

ففعلت ، ومعى بعض أبنائى ، وهناك مضى بى اليه أحد رجاله فقال له :

« أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عير مكة ، وهو يطعم الناس فى الســـهل ، والوحوش في رءوس الجبال »

فأكرمنى « أبرهة » عن أن أجلس دونه ، وكأنما كره فى الوقت نفسه أن تراه الحبشة معى على سرير ملكه ، فنـزل عن سريره وجلس على بساطه وأجلسنى الى جانبه ثم قال لترجمانه :

ـ قل له ما حاجتك ؟

فلما أجبت : حاجتى أن يرد علىّ الملك مائتى بعـــير أصابها لى

بدا على الملك كأنما صغرت فى عينيه ، وخيبت ظنه فى وقال لترجمانه فى جفوة :

ـ قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى • أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك لا تكلمنى فيه ؟

قلت على الفور :

ـ انى أنا رب الابل ، وان للبيت ربا يحميه

قال الفاجر مدلا بقوته :

ـ ما كان ليمتنع منى !

فأجبته متحديا :

ـ أنت وذاك ••

وكان معى سيد هذيل ، فعرض على «أبرهة» ثلث أموال « تهامة » على أن يرجع ولا يهدم البيت ، فأبى متكبرا ، واكتفى بأن أمر برد ابلى الىّ ••

وانصرفنا ، فحدثت قريشا بالخبر ، وأمرتهم بالخروج من مكة ، ثم قمت فأخذت بحلقة باب الكعبة ، وقام معى نفر من « قريش » يدعون الله ، ويستنصرونه على «أبرهة» وجنده

□

وأطرق « عبد المطلب » لحظة ، ثم رفع رأسه الى السماء وردد فى ضراعة أبياته التى قالها وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهم ان العبد يمنع رحله فامنع حلالك

جروا جموع بلادهم، والفيل ، كى يسبوا عيالك

ان كنت تاركهم وكعبتنـــا ، فأمر ما بدا لكَ !

يا رب لا أرجو لهم ســواكا
يا رب فامنع منهـــم حماكا
ان عـدو البيت من عاداكا
امنعهموا أن يخربوا فنـاكا

فرددت « آمنة » من بعده :

يا رب لا أرجو لهم ســواكا

ثم ودعها الشيخ وخرج ، على أن يبعث اليها فى غد من يصحبها فى خروجها لتلحق بالجمع الراحل

وخلت « آمنة » الى نفسها والى الجنين الغالى الذى تطوى عليها جانبيها ، فعز عليها أن تلده بعيدا عن البلد الحرام ، وفى غير دار أبيه « عبد الله »

وكان هذا الخاطر بحيث يقلق مضجعها ويسهر ليلتها ، لكنها أوت الى فراشـــــها وما يتخلى عنها ايمانها بأن الله مانع بيته ، ومتى كان للطاغين والجبـابرة على البلد الحرام سبيل ؟

ونامت مطمئنة ، حتى انبلج الصبح وقد قر عزمها عـلى ألا تبرح مكانها من جوار الحرم ، الى أن يقضى الله أمره

□

وارتفعت شمس الضحى دون أن يأتى من قومها أحد ، ثم مضى النهار الا أقله وهى فى عجب : كيف لم يبعث عبد المطلب رسله اليها ؟ وفيم هذا الصمت المريب الذى يخيم

على أحياء مكة كأنما قد أمسك كل حي فيها أنفاسه ؟

بل فيم ذلك الضجيج البعيد ، يتناهي اليها من أقصى الجنوب ، غامضا مختلطا مبهما لا تكاد تميزه : أهتاف هو ودعاء ، أم صراخ وعويل ؟

ألا ان وراء ذلك كله لأمرا ...

□

وأقامت « آمنة » تترقب ، حتى اذا آذنت الشمس بمغيب ، جاءتها الرسل من قومها تسعى ، لا لتطلب اليها أن تخرج الى شعف الجبال ، ولكن لتبشرها بالنجاة

ولم يبق فى « مكة » بعدئذ من لم يعرف الخبر :

حدثوا أن « أبرهة » كان قد تهيأ لدخول البلد الحرام ، وهيأ فيله وعبى جيشه مجمعا لهدم البيت العتيق ، ثم الانصراف الى اليمن ، فلما وجهوا الفيل من معسكره فى ظاهر البلدة من ناحية الجنوب ، برك وأبى أن يتحرك . فضربوه فى رأسه بآلة من حديد ، ثم أدخلوا محاجن لهم فى أسفل بطنه ، وهو بارك لا يقوم ، فوجهوه راجعا الى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه نحو الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه الى المشرق فتهيأ للانطلاق ، ولما عادوا يوجهونه نحو مكة برك !

ثم حدثت المعجزة : سلط الله نقمته على أصحاب الفيل، فانتشر فيهم فجأة وباء مهلك ، رمتهم بجراثيمه طير أبابيل، فجعلتهم كعصف مأكول

هنالك أدركهم الذعر ، فولوا مدبرين يبتدرون الطريق الذى جاءوا ، ويسألون عن « نفيل بن حبيب الخثعمى » ـ وكان قد خرج لقتالهم حين مروا بأرض خثعم ، فلما هزمه أبرهة افتدى نفسه بأن يكون دليل الحبشان بأرض العرب ـ فلا يكاد «نفيل» يسمع صياحهم وضراعتهم اليهأن يدلهم على الطريق الى اليمين ، حتى يرد بأعلى صوته :

أين المفر والاله الطالب
والأشرم المغلوب ليس الغالب

أو يقول :

وكل القوم يسأل عن « نفيل »
كأن علىّ للحبشان دينا !

قيل : « فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل ، وأبرهة معهم ينتثر جسمه وتسقط أنامله أنملة أنملة ! »

ولم تكن أرض العرب قد شهدت ـ فيما روى ابن اسحق عن يعقوب بن عتبة ـ الحصبة والجدرى قبل ذاك العام المشهود

وأقبلت « قريش » على كعبتها المقدسة تطيف بها حامدة شاكرة ، وتجاوبت أرجاء البلد الأمين بدعوات المصلين وأناشيد الشعراء :

تنكلوا عن بطن مكة انها
كانت قديما لا يرام حريمها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى
ولسوف ينبى الجاهلين عليمها

ستون ألفا لم يثوبوا أرضهم
ولم يعش بعد الاياب سقيمها

▭

وبلغت الأصداء مسمع « آمنة » فقامت تصلى وقد أشرق وجهها بنور اليقين والايمان ، وأحست غبطة غامرة ، أن استجاب الله لدعائها فلم يكتب لولدها ـ ابن عبد الله ـ أن يولد بعيدا عن البلد الحرام

الوليد!

وُلِدَ الهُدَى فالكائناتُ ضياءُ
وفَمُ الزمانِ تبسمٌ وثَنَاءُ
الروحُ والملأُ الملائكُ حولَه
للدينِ والدنيا به بُشَرَاء
والعرشُ يَزهُو والحظيرةُ تزدهِي
والمُنْتَهَى ، والسدرةُ العَصْمَاء

« شوقي »

ثم لم تك الا فترة قصيرة المدى بعد يوم الفيل ، حتى ذاعت بشرى المولد • حدد قوم هذه الفترة بخمسين يوما وهو الأكثر والأشهر ، على ما نقل «السهيلى» فى (الروض الأنف)

وعن « ابن عباس » أن المولد كان يوم الفيل ، واكتفى آخرون بأن ذكروا انه كان فى عام الفيل (السيرة١/١٦٧)

وكانت الرؤى قد عاودت « آمنة » فى صدر ليلة مقمرة من ليالى ربيع ، وسمعت من يهتف بها من جديد انها توشك أن تضع سيد هذه الأمة ، ويأمرها أن تقول حين تضعه :

« أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد » ثم تسميه « محمدا »

وجاءها المخاض فى أوان السـحر ، وهى وحيدة فى منزلها ليس معها أحد سوى جاريتها ــ وقيـل فى رواية أخرى ان « أم عثمان بن أبى العاص » كانت كذلك معها ــ فأحست بما يشبه الخوف ، لكنها ما لبثت أن شعرت بنور يغمر دنياها ، ثم بدا لها كأن جمعا من النسـاء يحطن بمضجعها ويحنون عليها ، فحسبتهن من بنات عبد مناف ، وعجبت كيف علمن بأمرها وما أخبـرت به من أحد ، غير أنها أدركت على الفور أن هؤلاء اللواتى حسبتهن من نساء البيت الهاشمى ، لسن سوى أطياف سارية ! وخيل اليها أن من بينهن « مريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وهاجر أم اسماعيل » !

وزايلها كل ما كانت تحسه من خوف ، فتجلدت للحظة الحاسمة ، وما كاد نور الفجر ينبثـق ، حتى كانت قد وضعت وليدها كما تضع كل أنثى !

□

وتوارت الأطياف النورانية السارية ، حين لم تعـد « آمنة » وحدها ! كان ولدها الى جانبها يملأ الدنيا حولها نورا وأنسا وجمالا ، ومضت ساعة وبعض سـاعة ، وهى لا تفتأ ترنو الى طلعته البهية وكيانه اللطيـف المشرق ، وتذكر به الحبيب الذى أودعها اياه ، ثم رحل ...

حتى اذا انبلج الصبح ، كان أول ما فعلته الوالدة أن أرسلت الى « عبد المطلب » تبشره بمولد حفيده ، فأقبـل مسرعا ، وانحنى فى حنو على الوليد ، يملأ منه عينيه ،وقد

القى سمعه الى « آمنة » وهى تحدثه عما رأت وسمعت حين الوضع

ووعى كل ما قالت ، ثم حمل صغيره العزيز بين ذراعيه فى رفق ورقة ، وانطلق خارجا حتى أتى الكعبة فقام يدعو الله ويشكر له أن وهبه ولدا من ابنه الفقيد الغالى

وأحاط به بنوه فى خشوع وغبطة ، وهو يطوف بالكعبة منشدا :

الحمد لله الذى أعطانى
هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان
أعيذه بالبيت ذى الأركان
حتى أراه بالغ البنيان
أعيذه من شر ذى شنآن
من حاسد مضطرب العنان

ثم رده الى أمه ، وعاد لينحر الذبائح ويطعم أهل الحرم وسباع الطير ووحش الفلاة

وكانت مكة ـ حين ذاعت فيها بشرى المولد ـ ما تزال تحتفل بما أتاح الله لها من نصر على أصحاب الفيل ، فرأى القوم فى مولد « محمد » حينذاك ، آية تذكر بأخرى ، يوم اختير أبوه للنحر ، ثم افتدى بالابل المئة

وبلغ من غبطة البيت الهاشمى بالمولود العزيز ، أن « ثويبة الأسلمية : جارية أبى لهب بن عبد المطلب » لم

تكد توافى سيدها ببشرى المولد ، حتى أعتقها ، ولو قد كشف له الحجاب عن الغد المغيب ، لروعته الحرب الدامية التى قدر لقريش أن تصلاها بعد أربعين عاما ، عندما جاء وليدها ذاك الهاشمى اليتيم ، برسالة السماء

فيقال ان « العبـــــــاس بن عبد المطلب » رأى أخاه « أبا لهب » بعد موته بســــنة ، فسأله عن حاله ، فأجاب أبو لهب : فى النار ، الا أن العذاب خفف عنى كل ليـــلة اثنين ، بماء أمصه من بين اصبعي هاتين ، وذلك أنيأعتقت « ثويبة » حين بشرتنى بولادة النبى صلى الله عليه وسلم

و « أبو لهب » هذا ، هو الذى نزل فيه قوله تعـالى : « تبَّـــتْ يدا أبى َلهــــبٍ وتَبْ ، مَا أغنى عنه مالـُـــه وما كسب ـ سيصلى نارا ذاتَ لَهَبْ ـ وامرأتُه حمـَّالةَ الحطب ـ فى جيدها حبلٌ من مسد »

ولن يمضى وقت طويل ، حتى تمتلىء الجزيرة بأخبــــار ومرويات عن تلك اللحظة المباركة التى وضعت فيها «آمنة» ولدها . وتظل تلك المرويات تتناقل عبر الأجيــــال حتى تصل الينا وقد أضافت اليها الليـــالى والأيام جديدا من مبتدعات السمار ورؤى المحبين

وهذا زماننا يصغى فى ذكرى تلك الليلة المباركة من كل عام ، الى مئات الألوف من الأصوات فى شتى المحـــافل بمختلف بقاع الأرض ، ترتل قصة المولد وتترنم بما ظهر عند ولادة محمد من خوارق وغرائب ، اذ :

« زيدت السماء حفظا ، ورد عنها المردة وذوو النفوس الشيطانية ، ورجمت الجن وتدلت اليه صلى الله عليه وسلم الأنجم الزهرية ، واستنارت بنورها وهاد الحرم ورباه — وخرج معه صلى الله عليه وسلم نور أضاء قصور الشـــام القيصرية ، فرآها من بطاح مكة داره ومغناه — وانصـدع الايوان بالمدائن الكسروية ، الذى رفع أنو شروان سـمكه وسواه — وسقطت أربع وعشر من شرفاته العلوية ، وكسر سرير الملك كسرى لهول ما أصابه وعراه — وخمدت النيران المعبودة بالممالك الفارسية ، لطلوع بدره المنير ومحياه ..»

ويهتف أمير الشعر العربى بعد نحـــو ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن من الليلة الغراء :

بك بشر الله السـماء فزينت
وتضوعت مسكا بك الغبــراء
يوم يتيه على الزمان صـباحه
ومســـاؤه بمحمد وضـــاء
ذعرت عروش الظالمين فزلزلت
وعلت على تيجانهـــم أصداء
والنار خاوية الجوانب حولهـم
جمدت ذوائبهـــا وغاض الماء
والآى تترى ، والخوارق جمـة
« جبريل » رواح بها غـــداء !

□

وفى ضجيج الاحتفال بمولد « ابن عبد الله » ، لم تنس « قريش » أن تسأل شيخها « عبد المطلب » : لم عدل عن

أسماء آبائه وسمى حفيده محمدا ؟

ذلك أن الاسم لم يكن ذائعا بين القوم ، ويقول «السهيلى» فى « الروض الأنف » : « لا يعرف فى العرب من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم الا ثلاثة ، طمع آباؤهم ـ حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، وبقرب زمانه، وأنه يبعث فى الحجاز ـ أن يكون ولدا لهم •• وهم : محمد بن سفيان بن مجاشع ، جد جد الفرزدق الشاعر ـ ومحمد بن أحيحة بن الجلاح ••ومحمد بن حمران ابن ربيعة • وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده علم من الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا ، فنذر ان ولد له ذكر أن يسميه محمدا •• »

□

سألت « قريش » شيخها عن اسم حفيده ، فأجاب : أردت أن يكون محمودا فى الأرض وفى السماء ••

ويعلق « بودلى » على تلك الاجابة قائلا : « ••• وأيا كان السبب ، فقد أصبح اسم الطفل محمدا ، وتسمى به ملايين الأطفال الذين ولدوا بعد الدين الجديد الذى قدر لابن « آمنة » من عبد الله ، أن ينشره على العالمين •• »

الرضيع

« ... فما منا امرأة الا وقد عرض عليها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتأباه اذا قيل لها انه يتيم ، وذلك أنا انما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول : يتيم ؟ ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟

« فما بقيت امرأة قدمت معى الا أخذت رضيعا غيرى ، فلما أجمعنا على الانطلاق ، قلت لصاحبى : والله انى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا ، والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه

« قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ... »

« حليمة السعدية »

أحست « آمنة » بعد أن وضعت ولدها الوحيد ، أن الشطر الأهم من رسالتها قد انتهى بمولد ابنها الموعود بأمجد غد، كما انتهت رسالة «عبد الله» منذ أن أودعه جنينا فى أحشائها ، فأسلمت نفسها من جديد لأشجان الذكرى ، الى حد أثر فى صحتها وان لم يفض بها الى التلف أو قريب منه ، ذلك أن جزءا من تلك الرسالة لم ينته

بعد ، فما يزال عليها أن ترعى ولدها حتى يدرك ، فتحدثه عن أبيه ، ثم تصحبه الى يثرب ، حيث يزوران قبرفقيدهما الغالى

وأقبلت الأم على صغيرها ترضعه ريثما تفد المراضع من البادية فيذهبن به مع لداته من رضعاء قريش ، بعيدا عن جو مكة الخانق ، لكن لبن « آمنة » جف بعد أيام • ويعلل « بودلى » ذلك بأنه أثر لما أصابها من حزن لموت زوجها ، فدفعت به الى « ثويبة » جارية عمه « أبى لهب » ، وكانت قد أرضعت قبله عمه « حمزة بن عبد المطلب »

ثم لم تمض الا أيام معدودات ، حتى وفدت المراضع من بنى سعد بن بكر ، يعرضن خدماتهن على نســـاء الطبقة الموسرة من قريش ، فعرض عليهـــن « محمد بن عبد الله » فزهدهن فيه يتمـــه ، وأنه لم يك ذا ثراء عريض يكافىء نسبه الشريف،فلقد مات «عبدالله» فى حياة أبيه «عبدالمطلب» فلم يرث عنه مالا ، وأعجلته منيته فى مقتبل العمر قبل أن يتأثل لنفسه غنى ، ومن ثم لم يترك لولده الذى خرج الى الدنيا بعد موته ، سوى أمه ، وجاريته الحبشـــية « بركة أم أيمن » ، وعددا من الابل والغنم ، وانها ــ كما يقــول الدكتور هيكل ــ لثروة ضئيلة لحفيد أمير مكة ، وسليل البيت الهاشمى القرشى العريق •

وأرهق الحزن « آمنة » ، وهى ترى المراضع يوشكن أن يعدن الى البادية،زاهدات فى ولدها الشريف اليتيم ، مؤثرات عليه أطفال الأحياء ممن يرجى منهم الخير الوافر

وكاد اليأس من اقبال مرضعة على اليتيم ، يغزو قلب

أمه العامر بأشجانه ، لولا أن عادت احدى المرضعات تلتمس « محمدا » بعد أن انصرفت عنه أول النهار . تلك هي «حليمة بنت أبي ذؤيب السعدي » زوجة « الحارث بن عبد العزى: أحد بني سعد بن بكر بن هوازن »

ولندع « حليمة » تروى قصتها مع الرضيع اليتيم ، أو يرويها عنها «ابن اسحق» شيخ كتاب السيرة، نقلا عمن سمع « عبد الله بن جعفر بن أبي طالب » يقول :

« كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية ، أم رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أرضعته ، تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه ، في نسوة من بني سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء . قالت : وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئا ، فخرجت على أتان لي قمراء ــ أي عجفاء ــ معنا شارف لنـــا ــ أي ناقة مسنة ــ والله ما تبض بقطرة ، وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذي معنا، من بكائه من الجوع ، وما في ثديي ما يغنيه وما في شارفنا ما يغذيه . ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتاني تلك .. حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة الا وقد عرض عليها (محمد) ــ رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ فتأباه اذا قيل لها انه يتيم . وذلك أنا انما كنـا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول : يتيـــــم ؟ ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟

« فما بقيت امرأة قدمت معي الا أخذت رضيعا ، غيري ، فلما أجمعنا على الانطلاق قلت لصاحبي : والله اني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا . والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه

« قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ..

« فذهبت اليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه الا أنى لم أجد غيره • فلما أخذته رجعت به الى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك • وقام زوجى الى شارفنا تلك فاذا هى حافل ، فحلب منها ما شرب ، وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا ، فبتنا بخير ليلة

« يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمى والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة !

« فقلت : والله انى لأرجو ذلك

« ثم خرجنا وركبت أتانى وحملت (محمدا) عليها معى، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شىء من حمرهم ، حتى ان صواحبى ليقلن لى :

« يا ابنة أبى ذؤيب ، ويحك ! اربعى علينا ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟

« فأقول لهن : بلى والله انها لهى هى !

« فيقلن : والله ان لها لشأنا ...

« ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها،فكانت غنمى تروح علىّ حين قدمنا به معنا ، شباعا لبنا فنحلب ونشرب ، وما يحلب انسان (غيرنا) قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم :

« ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب !

« فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبـــن ، وتروح غنمى شباعا لبنا • فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته »

□

هكذا نما الرضيع وترعرع فى صميم البادية ، بين قبيلة بنى سعد وهى من أعرق قبائل العرب وأفصحها ، فنطـق ـ كما يقول بودلى: ٢٩ ـ أول ما نطق ، وخطا أول ما خطا، بين أسياد البادية، هؤلاء الذين سيقاتلونه يوما ثم يخضعون له أخيرا ، ويحملون اسمه الى بقـاع من الأرض لم يكونوا ليعرفوها أو يسمعوا بها حتى يومهم ذاك •

كيف أمضت الأم سنتيها هاتين ؟ تسكت كتب السيرة فلا تحدثنا بشىء من ذلك ، وكأنما أحس الرواة والمؤرخون بالذى شعرت به « آمنة » من أن دورها الجليل قد أوشك على الانتهاء

على أنا لسنا بحاجة الى من ينبئنـــا أنها أقامت فى دار « عبد الله » تنتظر عودة ابنها ليعمر هذا البيت الذى أوحش من بعد رحيله

وانتهزت الأحزان المطوية فى أعماقها ، فرصة وحدتها الموحشة اثر ذهاب ابنها الى البادية ، فأرهقتها ارهاقا لم يكن لها عهد بمثله ابان حملها وحين كان « محمد » معها •

ولكن أوان فطامه كان يدنو رويدا ، وهذه هى تشغل عن

أشجان ذكرياتها بانتظار الحبيب الحى ، وتسلى همها بتمثله اذ يعود فيملأ دنياها أنسا وضياء

□

واستبطأت عودة « حليمة » بفتاها ، ولعلها همت غير مرة بأن تبعث اليها من يسترجعه ما دام قد استكمل عامى رضاعته • لكن « حليمة » لم تلبث أن جاءت ومعها العزيز المنتظر ، فلم تكد أمه المشوقة تراه ، حتى التزمته معانقة ، وتشبثت به فى حضنها كأنما لا تريد أن تبعده عن قلبها الخافق ، ثم أرسلته بعد حين ، وجعلت ترنو اليه معجبة بما بدا عليه من علامات الصحة والنضرة والنضوج

واذ أحست « حليمة » اعجاب الأم بصحة الصبى العزيز ، راحت تحدثها عن جو « مكة » ــ وقد كان اذ ذاك مرهق الحر شديد الوطأة ــ و « آمنة » تلقى اليها بعض سمعها ، أن كانت فى شغل بمناجاة الحبيب العائد .

هنالك تشجعت « حليمة » وأفصحت عن مرادها قائلة:

ــ لو تركت بنىّ عندى حتى يغلظ ، فانى أخشى عليه وبأ « مكة » !

فأنكرت الأم الحنون ما سمعت ، ونظرت الى « حليمة » نظرة عتاب • كيف خطر لها أن « آمنة » تستطيع أن تفارق للمرة الثانية ، فلذة كبدها ونور عينيها وأنس دنياها ؟

لكن « حليمة » لم تيأس ولم تتراجع ، بل ألحت فى استصحاب الصبى ، متوسلة الى والدته بكل ما فى أمومتها من حنان وايثار ، مؤكدة لها أن من الخير لولدها أن يظل

فترة أخرى بعيدا عن مكة ، وأن يعود معها فيمـــــرح فى البادية ملء الصحة ملء الطلاقة والحرية !

وعادت الأم تنظر الى ابنها فتراه حقا قد أينع فى جو البادية الطليق ، ثم انثنت الى قلبها تسأله ان كان يطيـق بعد الوحيد الغالى ؟ فاذا بهذا القلب النابض بالحب والحنـو والايثار ، يدعوها الى مزيد من الاحتمال والتصـــبر ، فى سبيل ما تعلم حقا أنه أنفع لولدها وأفضل

وودعت « آمنة » ولدها للمرة الثانيـــة ، وفى قلبهـــا وحشة وشجن ...

وانطلقت به « حليمة » راجعة الى مراعى بنى ســـعد ، والدنيا لا تكاد تسعها من فرط غبطتها وفرحها ، اذ كانت وقومها « شديدة الحرص على مكثه فيهم ، لما رأوا من بركته»

▭

لكن ، لم تمض الا بضعة أشهر ، حتى عادت « حليمة » من تلقاء نفسها بالصبى المبارك الى أمه ، وهى بادية القلق

ولم تذهب فرحة اللقاء بعجب « آمنة » من تلك العودة السريعة ، فقالت تسأل « حليمة » :

ــ ما أقدمك به يا ظئر وقد كنت حريصة عليه وعـــلى مكثه عندك ؟

أجابت « حليمة » بعد تردد وتفكير :

ــ قد بلغ الله بابنى ، وقضيت الذى علىّ ، وتخوفت الأحداث عليه ، فأديته اليك كما تحبين

ولم يقنع جوابها هذا « آمنة » ، بل لم يذهب بشىء مما

خامرها من ريب وعجب ، فما زالت بحليمة حتى أنبأتها بالخبر :

قالت ـ فيما روى عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ـ :

« فوالله انه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه ـ من الرضاعة ـ لفى بهم لنا خلف بيوتنا، اذ أتانا أخوه يشتد، فقال لى ولأبيه :

ـ ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه ، فشقا بطنه ، فهما يسوطانه

فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما منتقعا وجهه . فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له :

ـ مالك يا بنى ؟

قال :

ـ جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعانى وشقا بطنى ، فالتمسا (فيه) شيئا لا أدرى ما هو

فرجعنا به الى خبائنا ، وقال لى أبوه :

ـ يا حليمة ، لقد خشيت أن يكون الغلام قد أصيب ، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به

فاحتملناه فقدمنا به .. »

□

وأصغت الأم « آمنة » الى القصة دون أن تبدو عليها بادرة خوف أو قلق ، حتى فرغت « حليمة » من حديثها ، فقالت لها بملء يقينها واطمئنانها :

« أفتخوفت عليه الشيطان ؟ »

أجابت من فورها :

ـ نعم

فقالت « آمنة » :

« كلا والله ، ما للشيطان عليه من سبيل ، وان لبنيّ لشأنا ، أفلا أخبرك خبره ؟ »

فهتفت « حليمة » :

« بلى »

واذ ذاك حدثتها « آمنة » بما رأت وسمعت حين حملت به ، ثم ختمت حديثها قائلة :

« ... فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف من حمله ولا أيسر منه ، وقع حين ولدته وانه لواضع يديه على الارض رافع رأسه الى السماء ... دعيه عنك وانطلقى راشدة »

فظهر على « حليمة » أنها تذكرت شـــيئا كان قد غاب عنها ، وهتفت قائلة :

« الآن فهمت ما لم أفهمه من قبل : ذلك أن نفـــرا من نصارى الحبشة رأوا ابنى محمدا معى حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا اليه وسألونى عنه ، وفحصوه مليـــا ثم قالوا :

ـ لنأخذن هذا الغلام فلنذهب به الى ملكنا وبلدنا ، فان له شأنا نحن أدرى به وأعرف

فاختطفته منهم وقد هاجنى ذلك على رده اليك ،وهممت أن أفعل ، لولا أن مضارب بنى سعد كانت أقرب الىّ منك،

فعدوت نحوها ولم أشعر بالاطمئنان حتى دخلت به الحمى.»

وأكثر المؤرخين المحدثين ـ من مستشرقين ومسلمين ـ يقفون عند قصة الملكين هذه موقف الانكار ، فاذا ووجهوا بالذى رواه « ابن اسحق » عن بعض أهل العلم ، من أن الرسول نفسه حدث نفرا من أصحابه عن الملكين اللذين طهرا قلبه ، لاذوا بالقول بأن رواية الحديث ضعيفة السند، ثم نقدوا المتن نفسه بأن الروايات تجمع على أن محمدا أقام ببنى سعد الى الخامسة من عمره ، وقصة الملكين هــذه قد حددت سنه بما دون الثالثة ، وأرجعته الى مكة بعد فطامه بأشهر . فبين الروايتين ـ كما يقول الدكتور هيكل ص٧٣ـ تناقض صريح

ثم يستطرد الدكتور هيكل قائلا :

« وانما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين الى هذا الموقف من الحادث ، أن حياة محمد كانت كلها حياة انسانية سامية ، وانه لم يلجأ فى اثبات رسالته الى ما لجأ اليه من سبقه من الخوارق ، وهم فى هذا يجـــدون من المؤرخين العرب والمسلمين سندا حين ينكرون من حيـــاة النبى العربى كل ما لا يدخل فى معروف العقل ، ويرون ما ورد من ذلك ، غير متفق مع ما دعا القرآن اليه من النظر فى خلق الله ، وأن سنة الله لن تجد لها تبديلا ، غير متفق مع تعبير القرآن المشركين بأنهم لا يفقهون ، أن ليست لهم قلوب يعقلون بها » ا . هـ

والحق أن ضعف السند ، كان يعفينا من مثل هذا العناء فى نقد المتن ، فالحديث الذى أورده « ابن اسحق » مروى

عن « بعض أهل العلم » ويحسبه ابن اسحق ، « خالد بن معدان الكلاعي » وخالد هذا هو « أبو عبد الله الشـــامي الحمصي » المتوفي في العقد الأول من القرن الثاني الهجرى، وقد ساق الحديث مرسلا فلم يذكر فيه اسم الصحابى الذى نقله عن الرسول

ومعني هذا أن الحديث خبر واحد ـ وقد قيـــل انه لا يفيد علما ولا ظنا ـ كما أنه حديث مرسل ، سقط فيه ذكر الصحابى ، مجهّل بقول ابن اسحق : « عن بعض أهل العلم »

وهو بهذا كله ، يأتى فى مرتبة من أضعف مراتب النقل، فلا يلزم بشيء ، ومن هنا لم تكن بنا حاجة الى التعرض لنقد المتن بما ذكروه من تناقض صريح بين زمن القصة ، وبين الرواية القائلة بأن محمدا بقى فى البادية حتى الخامسة من عمره ، اذ ليس ببعيد أن تكون « حليمة » عادت فأخذت ظئرها للمرة الثالثة ، متوسلة الى أمه بما اكتسب هنـاك من قوة وصحة

كذلك لم تكن بنا حاجة الى نقد الحديث بأنه يخـــالف معروف العقل ، وهو نقد لا يسلم من الاعتراض ، وأولى منه أن يقال ان الحادثة تخالف مألوف الناس ومعتـادهم ، أما العقل فلا يحيل أن تشق بطن ويخرج منها عضو، وما نزال نشهد ذلك كل يوم فى جراحات الجسم

ولعل الذى يمكن أن يقال هنا فى اطمئنـــان ، هو أن القصة ـ سواء أجرت على لسان الرسول أم على لســـان تابعى ـ فهى من قبيل التمثيل الذى يراد به نقاء السريرة

وصفاء النفس ، وهذا قريب مما ذهب اليه « درمنجم » حين رأى الحادثة « لا تستند الى شيء غير المعنى الحرفى للآية القرانية : ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك »

ولا أستبعد مع هذا كله ، أن تكون « حليمة » قد روت الحادثة بعد الذى رأت من بركة رضيعها ، فليس بمنكر عندنا ، ولا مستبعد فى عقولنا ، أن تؤمن « حليمة » بأن هذا قد حدث فعلا ، بل انه ليتسق مع الذى اطمأن اليه أكثر المفكرين المعاصرين ـ وفيهم الدكتور هيكل ـ من «أنها وجدت فيه منذ أخذته بركة : سمنت غنمها ، وزاد لبنها ، وبارك الله لها فى كل ما عندها »

وكذلك يشير « بودلى » الى « اعتراف قبيلة بنى سعد ، بأنهم وجدوا فيه منذ أخذوه بركة »

الكتاب السادس

الرحيل

« حج بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، فمر على قبر أمه وهو باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائه صلى الله عليه وسلم »

عائشة أم المؤمنين

لترمق « آمنـــــة » وهى تحتضن فتـــــاها الوحيـد اليتيم ، بعد أن بلغ مقامه فى البادية أقصى أمده ، وعادت به « حليمة » السعدية الى أمه في البلد الحرام ، حيث مجد آبائه العريق ، ومجد موطنه العتيق

عاد فبدد بنوره ظلال الـكآبة التى كانت تغشى دنيـا « آمنة » فى وحدتها وترملها الباكر ، واحسبها لم تكف عن التحدث اليه عن والده الغائب ، ووصف شمائله ، ورواية قصة فدائه ، وما كان معقودا عليه من آمال كبار

وقـد بذلت « الأم » لولدها فى تلك الفتـــرة ، أقصى ما يستطاع من عناية ورعاية ، ان كان وحيدها ، ومنـاط أملها ، ومعقد رجائها . ويعترف كتاب السيرة بما كان لها من أثر جليل فى هذه المرحلة من عمر نبى الاسلام ، فيقول شيخهم « ابن اسحاق » :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أمه آمنة بنت وهب في كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتا حسنا »

واثمرت العناية ثمرتها ، فبدت على « محمد » تباشير النضوج المبكر ، ورأت فيه «آمنة» عندما بلغ السادسة من عمره ، مخايل الرجل العظيم الذى طالمـا تمثلته ، ووعدت به فى احلامها ورؤاها

اذ ذاك ادركت أن الأوان قد آن ، لـكى تؤدى واجبا

مقدسا ، وتحقق رغبة طال عليها الانتظار ، فحدثت ابنها عن رحلة يقومان بهـا معا الى « يثرب » كى يزورا قبر الحبيب الراقد

وهش الابن لفكرة السـفر ، وسره أن يصحب أمه فى زيارتها لمثوى فقيدهما ، وأن يتعرف ـ فى الوقت نفسه ـ الى أخوال ابيه المقيمين بيثرب ، وكانوا ذوى شرف هناك وجاه عريق ، ولعله سمع أمه غير مرة ، تردد قول الشاعر فى « أبى وهب بن عمرو : خال عبد المطلب بن هاشم » :

ولو بأبى وهب أنخت مطـيتى
غدت من نداه ، رحلها غير خائب

بأبيض مـن فرعى لؤى بن غالب
اذا حصلت أنسابهـا فى الذوائب

أبى لأخذ الضيم ، يرتاح للنـدى
توسـط جداه فروع الأطايب

وكان الجو صيفا ، والشمس تلهب صخور مكة وتصهر رمالها ، حين بدأت « آمنة » تتهيأ لرحلة طويلة شاقة ، تجتاز بها الأميال المائتين التى تفصلها عن يثرب ، حيث يرقد « عبد الله » الذى لم تره منذ نحو سنوات سبع

ولم تكن تجهل مشقة السفر عبر الصحراء القاحلة ذات الرمال المتحجرة ، ولا غاب عنها ما يتكبـده الضاربون فى أحشاء البيداء بسهولها الموحشة وقفرها المرهوب ، لـكن شوقها الى زيارة يثرب ، كان أقوى من أن تغلبـه عقبات سفر هو فى الحقيقة قطعة من العذاب

وشغلت أياما بتجهيز راحلتها واعداد مئونة الطريق ، ثم زودت ناقتها بهودج من أغصان مجدولة ، ذى مظلة مرفوعة تحجب الشمس عن الابن العزيز

وأقامت بعد ذلك تنتظر أول قافلة تخرج من مكة نحو الشمال فى رحلة الصيف الموسمية ، فلما أذن المؤذن بالرحيل ، ضمت اليها فتاها وركبت راحلتها ، تصحبهما الجارية الوفية ، « بركة أم أيمن »

□

وألقت « آمنة » نظرة وداع على دار عرسها التى جمعتها فترة بعبد الله ، والتى وضعت فيها من بعده ولدهما الوحيد ، ثم عرجت على الحرم فطافت به داعية ، وانفلتت من بعد ذلك نحو الشمال ، حيث كانت القافلة تتهيأ للتحرك ، وقد علا رغاء الابل مختلطا بضجيج المسافرين ودعاء المودعين !

وسار الركب فى أول أمره بطيئا وئيدا كأنما يعز عليه أن يفارق الحمى الأمين والديار الغاليات ، حتى اذا توارت معالم مكة خلف الجبال الشم التى تحف بها ، استقبل الراحلون طريق الشمال ، وحثوا الخطا قدر ما استطاعوا ، كيما يبلغوا سوق الشام فى ابانه ، ويعودوا الى حماهم الأمين ، والى الأهل والأحباب

ورفع الحادى عقيرته بالغناء ، يودع الديار التى خلفوها من ورائهم ، ويعد الابل بالراحة والظل ، ان هى سارت حثيثا فبلغت بأصحابها ما يأملون • ورجّعت أرجاء البيداء

صدى الحداء الحنون ، فرقت قلوب الراحلين ، وسرت في أبدانهم نشوة غامرة ، من شجن الذكرى ولوعة الفراق

وعطفت « آمنة » على ولدها في حنو فياض ، ثم أغمضت عينيها تحلم باللقاء القريب !

وساعدها صمت الصحراء الا من رجع النغم ، على استرسالها في الحلم ، فقطعت أكثر الطريق شبه غافية ، تنصت في الحداء الى نداء شجي يتناهى اليها من بعيد ، فهفا قلبها الى الأليف النائي ، ورنت عيناها الى الأفق الشمالي ، حيث تراءت لها « يثرب » أشبه بواحة خضراء ، تحنو ظلالها الوارفة على أعز قبر ، ويؤوى ثراها الطيب أغلى رفات ...

فاذا جن الليل وصمت الحادى ونام الرفاق وهجع الكون ، ضمت « آمنة » وحيدها الى صدرها ، وأسلمت نفسها الى رؤاها تسرى بها نحو المزار ، وتستحضر لها روح « عبد الله » آيبة من مأواها البعيد المجهول ، لتحيي الزوجة الحبيبة الوفية ، وتبارك الابن الصغير العزيز !

□

وشارفت الرحلة منتهاها ، فجمعت « آمنة » نفسها وأقبلت على ولدها تحدثه من جديد عن أبيه ، ثم تغريه بأن يتطلع معها الى المدينة البيضاء التي بدأت تتكشف من وراء جبل « أحد » ، حيث ينبسط السهل وتطمئن الأرض ، ويتموج عشبها الأخضر ، وتتراقص عليها ظلال النخل الباسقات ...

وأناخ الركب رواحله فى «يثرب» ، ريثما تزود بالراحة والتمر والماء ، ثم استأنف مسيره شـــمالا ، بعد أن ترك « آمنة » وولدها وجاريتها فى حمى « بنى النجار » ...

ولم يكد يستقر بها المقام بين ترحيب القوم واحتفالهم ، حتى امسكت بيد غلامها ومضت تطوف بالبيت الذى مرض فيه أبوه ، وتحج الى القبر الذى حوى رفاته ، ثم خلت بين ولدها وبين الحياة الجديدة مع أبناء أخواله ، فانطلقوا به الى ملاعبهم ومغانيهم ، يلعب ويمرح ، ويتعلم السباحة مثلهم فى المياه الجارية ، على حين عكفت « آمنة » على قبر الحبيب ، تناجيه حينا ، وتبكيه أحيانا ، وهى على الحالين راضية مستروحة ، تجد من الأنس بقرب الفقيد ما يروى ظمأها ويريح شجوها

وطاب لها العيش هكذا شهرا كاملا ، نفست فيه عن حزنها المكبوت ، وأسعفتها عيناها بما شاءت من دمع ، كما تمتع ولدها بالجو اللطيف ، وبصحبة رفاقه من بنى الخال ...

وودت « آمنة » لو طال بها المقام فى « يثرب » ، ولعلها فكرت ــ كما يقول بودلي ــ فى أن تبقى بها ، « لولا أن أسرة محمد مكية ، ومكة هى الموطن ، فلا بد من العودة اليها »

ولا يدرى أحد كيف أمضت « آمنة » ليلتها الأخيرة قبل أن تشد رحالها عائدة الى «مكة» ، وأغلب الظن أنها أفنتها فى

مناجاة الحبيب الذى توشك أن تفارقه للمرة الثانية ، حتى اذا آن لها أن تمضى ، انتزعت نفسها قسراً من ذلك الجو المعطر بالذكرى ، وودعت مضيفيها شاكرة لهم ما لقيت ولقى ولدها من جميل ترحابهم وكرم ضيافتهم ، ثم ركبت راحلتها وركب معها ولدها وجاريتها ، فعرجت على القبر تزور صاحبها للمرة الأخيرة ، وتكلفت الصبر وهى تجامل القوم الذين صحبوها مودعين الى ظاهر المدينة ، ثم أسلمت نفسها الى اشجانها ، والناقة تمضى بها وبمن معها نحو مكة ، بلا حداء ...

□

واذ هم فى بعض مراحل الطريق بين البلدتين ، هبت ـ فيما يقال ـ عاصفة عاتية هوجاء ، أخذت تسفع المسافرين بريحها المحرقة ، وتثير من حولهم الرمال كأنه الشرر الملتهب . فتأخرت الرحلة أياما ريثما هدأت العاصفة وسكنت ثائرتها ، ثم استأنف الركب سيره وقد شعرت « آمنة » بضعف طارىء ، مكن له من جسمها ما كانت تجد من لذعة الفراق الجديد

ولم يجزع « محمد » أول الأمر لما بدا على أمه من اعياء ، بل رجا أن تزايلها وعكتها بعد أن همدت العاصفة ، أما « آمنة » فأحست انه الأجل المحتوم ، وكانت بحيث يشوقها أن تلحق بعبد الله ، لولا فرط تعلقها بولدها الوحيد اليتيم ...

وتشبثت به معانقة وقد انهمرت الدموع من عينيها ،

فأخذ الصبى العزيز يجفف دمعها بيده الحلوة الناعمة ، مستمرئا لذة الحنان الغامر ، وكان ينسى فى نشوته رهبة الموقف ...

وفجأة ... تراخت ذراعاها عنه ، فحدق فيها فراعه أن بريق عينيها يوشك أن ينطفىء ، وأن صوتها يخفت رويدا رويدا ، حتى يصير الى حشرجة هامسة

هنالك تضرع اليها أن تنظر اليه ، وأن تكلمه ، فيقال انها « نظرت لوجهه وقالت :

بارك فيك الله من غلام
يا ابن الذى من حومة الحمام
نجا بعون الملك العلام
فودى غداة الضرب بالسهام
بمئة من ابل سوام »

ثم أمسكت تستريح ، فلما استردت أنفاسها اللاهثة همست فى حشرجة الاحتضار :

« كل حى ميت ، وكل جديد بال ، وكل كبير يفنى . وانا ميتة وذكرى باق ، فقد تركت خيرا وولدت طهرا .. »

وذاب صوتها فى سكون العدم ، فما تكلمت بعدها أبدا

▭

وخيم على الكون صمت رهيب ، مزقته بعد حين ، صرخة صبى مفجوع ، انحنى على جثة أمه فى العراء يناديها فلا تلبى نداء ...

والتفت الى « أم ايمن » يسألها عن سر هذه الحياة التى

انطفأت ، والجسد الذى همد وبرد ، والصوت الذى فنى وذاب ، فضمته المسكينة الى صدرها ، ولم تملك الا أن تقول دون أن تعى :

« انه الموت يا بنى » !

الموت ؟ !

ذاك الذى غال أباه من قبل ؟

ذاك الذى جرع أمه كأس الترمل ، فما طاب لها عيش ولا اندمل فى قلبها الجرح مدى سبع سنوات طوال ؟ !

ذاك الذى يطوى الأعزاء فى جوف الثرى ، فلا رجعة بعد ولا لقاء ؟ !

ذاك الذى يمضى بالمسافر الى حيث لا عودة ولا مآب ؟

وتلفت اليتيم حواليه حائرا ، فاذا الكون هامد موحش ، كأنما غشيته غاشية من الخوف والرهبة فى حضرة الموت !

ولاذت عيناه الضارعتان بالسماء ، فاذا بها واجمـــة ، ملفعة بزرقة كابية خرساء !

ومد بصره المجهد الى الأفق البعيد ، فاذا قطع ممزقة مشردة من غيوم شاحبة ربداء !

هنالك آب اليتيم الى « أمه » فجلس قريبا منها يحدق فيها صامتا خاشعا ، على حين أخذت « بركة » تلف الجسد الراقد ، وتعصب الوجه الذابل ، وتغمض العينين المنطفئتين

وتبعها مطرقا مستسلما ، وهى تحمل الجثة الى قرية « الأبواء » كيما تجهـزها لضجعتهـا الأخيرة ، حتى اذا أوشك الثرى أن يغيبها ، اندفع وحيـدها اليتيم نحوها

فتشبث بها ، يريد أن يستبقيها أو يبقى معها !

وعلا نحيب القوم من اشفاق ورثاء ، وخلوا بينه وبين أمه ساعة أو بعض ساعة ، ثم نحّـــوه عنهـا فى رفق ، واضجعوها فى لحدها

وهالوا عليها الرمال ...

... ...

ووجمت أرباض « مكة » وهى تشهد الصبى الحزين الذى غادرها مع أمه منذ شهر وبعض شهر ، بادى الغبطة والتهلل والاشراق ، يعود اليهـا اليوم وحيـداً مضاعف اليتم ، قد ذاق الحزن المر ، ورأى بعينيـه مشهد الموت فى أعز من له ، وبلا المأساة الفـــادحة التى طالما حدثته أمه عنها ، وهى تستعيد ذكرى أبيه « عبد الله »

وسوف تذكر « مكة » عودة « محمد » هذه ، يوم يخرج منها بعد نحو نصف قرن ، تحت جنح الظلام ، مهاجرا بدينه الجديد الى « يثرب » فى صحبة شيخ صديق ، وقريش من ورائه تعدو فى أثره وتلح فى طلبه ...

وكذلك سوف تذكر « مكة » عودة الصبى اليتيم هذه ، يوم يرجع اليها من مهجَرِه عام الفتح ، ويدخلهـــا ظافرا منتصرا ، ليحطم الأصنام التى شوهت جلال الحرم ، ويهتف من أعلى البيت الحرام :

« الله أكبر ! »

فترجع أرجاء الجزيرة هذا الهتاف العالى ، ثم تتجاوب به آفاق الأرض على مر العصور والأجيال

أجل ، وجمت أرباض « مكة » وهى تشـــهد الصبى الحزين يعود اليها وحيدا مضاعف اليتم ، فتلقاه جده « عبد المطلب » محزون القلب ممزق الكبد ، وضمه اليه مسبغا عليه من عطفه وحنانه ما لم يسبغ مثله على آخر من بنيه وأحفاده ، « ومع ذلك بقيت ذكرى اليتم أليمة عميقة فى نفسه ، وطالما حدث أصحابه بعد مبعثه عن رحلته تلك الأولى ، حديث محب ليثرب ، محزون لما تحوى القبور من أهله بها ... »

وفى الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زار قبر أمه بالأبواء ، فبكى وأبكى ...

وروى عن « عائشة » رضى الله عنها أنها قالت : « حج بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، فمر على قبر أمه وهو باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائه صلى الله عليه وسلم ... »

الكتاب السابع

الخالدة

الى هنا ، تنتهى حياة « آمنة » على سطح هذه الارض ، وينصرف عنها التاريخ حينا ليعود بعد نحو أربعة وثلاثين عاما ، فيفسح لهـا أعز مكان فى كتاب الخلود ، كأم للنبى البطل الذى تركته وحيدا يتيما فى بادية الجزيرة بين مكة ويثرب ، فما بلغ مبلغ الرجال حتى اختارته السـماء للرسالة العظمى ، وبعثته بالدين الذى يتبعه اليوم ملايين البشر من شتى الأجناس ، فى مشرق الارض ومغربها !

ولقد ثوى الرسول ـ بعـد أن أدى رسالته ـ فى ثرى يثرب ، كما ثوى أبوه من قبل ، وآب الى المصير الذى يئوب اليه كل حى « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل» ولكنه عاش ملء الحياة فى حساب الانسانية والتاريخ ، وفى قلوب هذه الملايين ممن آمنوا برسالته ، وستظل الدنيا أبدا تقف خاشعة أمام ذلك البطل الرسول الذى لم يكد يهتف هتافه الخالد : « الله أكبر » « حتى كان النسر الرومانى ـ كما يقول بودلى ـ يترنح ثم يتمرغ فى التراب لآخر مرة » واذا العرب الجفاة البداة الذين لم يكونوا يخـرجون من جزيرتهم الا لرحلتى الشتاء والصيف ، يطأون هذا النسر بالأقدام ، ويرثون عروش الأكاسرة وتيجان الفـراعين ، ويندفعون شرقا حتى يبلغوا بالرسالة المحمـدية أسوار الصين ، وينطلقون بها غربا حتى يصلوا الى ساحة المحيط

الأطلسى فيشيدوا لدينهم دولة اسلامية فى أسبانيا معقل الكاثوليكية المتعصبة ، ثم يغذون السير شمالا حتى يقرعوا ابواب « فيينا » عاصمة أمبراطورية النمسا ، ذات السلطان فى قلب أوربا المسيحية

أجل ، وستظل العقول أبدا حيرى امام عظمة ذلك الانسان الذى ولدته أمه « آمنة بنت وهب » بشرا سويا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويعرف لذع الحزن ومساورة القلق ، ويذوق مرارة اليتم ولوعة الثكل ، ويحب ويتزوج ، ويلد ، ويموت ، شأن كل بشر ، ومع ذلك استطاع أن يصنع تاريخ البشرية كلها منذ مطلع القرن السابع الميلادى ، وأن يقرر مصائر دول عظمى وشعوب عريقة ، ما كانت لتعرف شيئا عن تلك الجزيرة القاحلة الجرداء ، ولا تحس وجودا لأهلها الذين ينتقلون على الابل بين فيافيها المقفرة وصخورها العارية الجرداء ...

وهذا « كيتانى » الذى قضى أكثر عمره فى جوار « الفاتيكان » وحمى « القديس بطرس » يشد رحاله الى الجزيرة العربية فى صدر القرن الرابع عشر الهجرى ، لعله يعرف هناك ، سر خلود ذلك الراعى اليتيم ، وتعلق أتباعه به الى حد لا يعرف التاريخ له مثيلا ...

وهذا مستشرق انجليزى آخر ، يمسك قلمه ليتساءل فى دهشة وعجب ، عن المعجزة التى جعلت من « ابن آمنة » القرشية آكلة القديد ، بطل الأبطال كما وصفه « كارليل » رغم كونه النبى الأوحد بين أنبياء العالم الذى ولد فى ضوء

التاريخ الكامل ، ولم يأت بغير كتاب عربى مبين ، يصر على بشريته ، وينحى عنـــه كل ما حف « بعيسى » قبله من قداسة والوهية

وهل عرفت الدنيا ابن أنثى قبله أو بعده ، يغدو سلوكه اليومى ــ كما يقول هوجارت ــ سواء فى الأمور الخطـيرة أو الأمور التافهة ، القانون الذى يرعاه الملايين من اتباعه بكل دقة ، ويقلدونه عن يقين حتى أيامنا هذه ؟

« كلا ، ولم يحدث أن اعتبر شخص واحد ، فى أية طائفة من طوائف الجنس البشرى ، المثل الكامل للانسان ، فقلدت أفعاله بتمام الدقة ، كما حدث لمحمـــد بن عبد الله ، الذى وضعته « آمنة بنت وهب » كما تضع كل أنثى من البشر ، فى فجر يوم من أيام ربيع ، بجوار البيت العتيق ، ثم عاشت له حتى بلغ السادسة من عمره ، فسعت به الى قبر أبيه بيثرب ، ثم خلفته وحيدا فى الطريق الى مكة !

□

ولم تدر « بركة » وهى تودع الجسد الطاهر تلك الحفرة النائية فى جوف الصحراء ، أن الراحلة قد تركت وراءها ذكرا عريضا ممدودا يقهر الزمن ويغلب الفناء ، ولا أحست وهى تبكى سيدتهــا فى ذاك القفر الموحش ، أن قوما ممن آمنوا بابن السيدة « آمنة » ، قد زاروا قبرها بعد أعوام ، فخيل اليهم أن الجن تنوح عليها منشدة :

نبكى الفتاة البرة الأمينة
ذات الجمال ، العفة الرزينة

زوجة عبد الله والقرينـــة
أم نبى الله ذى السكينـــة
لو فوديت لفوديت ثمينة
وللمنـــايا شفرة سنينة
لا تبقين ظاعنا ولا ظعينـــة
الا أتت،وقطعت وتينه··

□

سلام على « آمنة » سيدة الأمهات ، وأم النبى المبعوث بآخر رسالات السماء !

بنت الشاطىء
(من الأمناء)

فهرس

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية قيمة بثمن زهيد

هي خطوة ثقافية كبيرة قامت بهادارالهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففي الخامس من كلشهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب في الشرق والغرب ، فياخراج انيق وطباعة متقنة ، ثمن الكتاب الواحد ٨٠ مليما (ماعدا كتاب زينب ١٠٠ مليم) بخلاف مصاريف البريد المسجل، وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

عبقرية محمد (نفدت نسخه)
تأليف عباس محمود العقاد

السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد أبو حديد

ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج

غاندى : القديس الثائر
تأليف لويس فيشر

هرون الرشيد
تأليف الدكتور أحمد أمين

زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد

ابو الشهداء
تأليف عباس محمود العقاد

الزعيم احمد عرابى (نفدت نسخه)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

جنكيز خان سفاح الشعوب
تأليف ف . يان

بطلة كربلاء (نفدت نسخه)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

قلب النسر
تأليف أوكتاف أوبرى

اشعب امير الطفيليين
تأليف توفيق الحكيم

نفرتيتى ربة الجمال والتاج
تأليف صوفى عبد الله

مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية
تأليف عبد الرحمن الرافعى

حديث رمضان
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى

القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد

عبقرية خالد
تأليف عباس محمود العقاد

زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ. س. ارمسترونج

مذكرات عرابى (جزء أول)
تأليف الزعيم أحمد عرابى

كليوباترة فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور

مذكرات عرابى (جزء ثان)
تأليف الزعيم أحمد عرابى

الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

عبقرية عمر
تأليف عباس محمود العقاد

لا تخف
تأليف ادوارد سبنسر كولز

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب (المبتديان) بالقاهرة وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبى ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ، ومن جميع المكاتب الشهيرة ، وأكشاك الصحف ما عدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذا الكشف

الكتاب القادم

فاطمة الزهراء والفاطميون

تأليف الاستاذ

عباس محمود العقاد

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت (تليفون ٧٨ـ١٧) صندوق بريد ١٠١٢ ـ أو باحدى وكالاتها فى الجهات الأخرى (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)

العراق : السيد محمود حلمى ـ صاحب المكتبة العصرية ـ ببغداد

اللاذقية : السيد نخله سكاف

مكة المكرمة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص٠ب٩٧

البحرين والخليج الفارسى : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين

البرازيل : Snr. Jorge Suleiman Yazigi,
Rua Varnhagem 30,
Caixa Postal 3766,
Sao Paulo, Brasil

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400.
Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street,
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية

Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

هذا الكتاب

شاءت «سلسلة كتاب الهلال» أن تقدم لقرائها في مناسبة شعبان وموسمه الديني ترجمة لأول سيدة أنجبت أعظم رجل في تاريخ الإسلام .. وهي السيدة آمنة بنت وهب

وقد كانت في حياتها مثلا عظيما في رجاحة العقل ، وشرف النسب ، والجمال الأنثوي ، والصبر على الشدائد ، وقد عرفت بالنبل والطهر والخلق الكريم

وإذا كانت حياة آمنة بنت وهب قصيرة ، فإنها في قيمتها وفي العصر الذي عاشت فيه ، وفيما أحدثت بعدها من أحداث خالدة وتاريخ عظيم ، تعد حياة عظيمة ، وتعتبر ترجمتها من أهم التراجم ، وأولاها بالعناية والبحث

وقد عنيت السيدة الفاضلة الدكتورة بنت الشاطئ ، بحياة هذه السيدة الجليلة ، فوضعت لها هذه الترجمة الرائعة التي تناولت نشأتها ونسبها وزواجها بعبد الله ووفاته عنها ، وحياتها بعد وفاته وولادتها للنبي محمد ، وما شهدت من أحداث في حياتها قبل الزواج وبعده ، حتى لحقت بزوجها خالدة في الخالدين